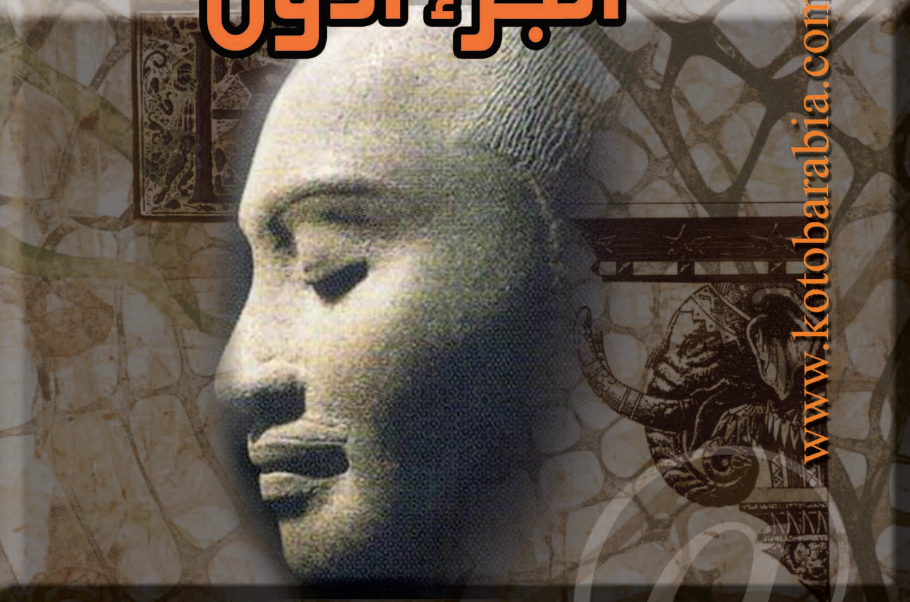
رواية

خسائر و مكاسب
الجزء الأول



د. إيهاب سلام

خسائر ومكاسب

الجزء الأول

خسائر بلا تعويضات

رواية

د . إيهاب سلام

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

(١)

الجو بارد ، ولكنه ينعش الجسد . والمعدة خاوية لذلك يفتقد الإنسان هذه البرودة المنعشة . يزداد شعوره بالبرد . يجلس بجانب حائط المسجد من الخارج ، بجانب عدد من الصبية . ويتأملهم قليلاً وثيابه التي تمزقت من كثرة الاستعمال لا تسترعي واحداً منهم . فهم مثله بؤساء .

سأل من بجانبه : وماذا تفعلون عند قدوم الشتاء الحقيقي ؟ .. نفخ الفتى في يديه لعل النفس الحار يدفئهما قليلاً ، وقال : نتوارى في صحن المسجد حتى لا يرانا الإمام فيزمجر فينا . قال الرجل : أليس الجو بارداً أيضاً في الداخل كما هو بارد في الخارج . قال الفتى : لكن برودته يمكن تحملها . ولا نقدر على تحملها خارجه .

قال الرجل يسأل : وكيف تأكلون ؟ .. قال الفتى مبتسماً : من النذور . عادة ما يوزعون علينا نذوراً لحماً وأرزاً في رغيف . أو فولاً نابتاً في رغيف . قد نبقى يوماً أو بعض يوم حتى يأتي نذر آخر . أو نأكل نذرين في يوم واحد .

سأله الرجل بفضول : ألا تنتظرون نذراً في ذك اليـوم ؟ .. تبسم الفتى ابتسامة باهتة : انتظر ربما تأتي امرأة تحمـل نذراً فنأكل معاً .

فعلاً جاءت امرأة تحمل أرغفة كثيرة مليئة بالأرز ولحـم الضأن . وتذكر شعراً قرأه يوماً : تموت الأسد في الغابـات جوعاً ولحم الضأن تأكله الكلاب . فهل نحن كلاب ؟ .. ثم رد على نفسه : لا بل نحن موتى .. موتى بلا قبور أو كالموتى رغم أننا نأكل .

مد يده إلى السيدة . وحين لمحها أخفى وجهه في قدميه . وتراخت يده الممدودة . وألقت المرأة برغيف به أرز ولحـم في حجره . ولم تلمح وجهه . تناول الرغيف وطفـق يأكـل بنهم . : لولا أن دلني المتسول على مسجد السيدة زينب لمـا تعشيت ذلك اليوم .

فرغت المرأة من توزيع النذر على البؤساء المتجمعـين المتغاضبين . يريد كل واحد منهم أن يفـوز بالغنيمـة قبـل الآخر . والتفتت فجأة إلى الرجل وهو يأكل بنهم . غير أنها دنت منه وهو يحاول أن يبعد ملامح وجهه عنها كأنه مجرم

يختفي من مطارديه من الشرطة . وسألت : ألست الأسـتاذ صديق عبد المحسن .؟ ..

ضحك الفتى المجاور لعبارتها حينما رن في أذنيه قولهـا الأستاذ وهو يخفي وجهه عنها ويتجه إلى حـائط المسـجد . وقال : لا .. لا .. لست صديق عبد المحسن .

مضت المرأة مستغربة وهي تقول : غير معقول . يخلق من الشبه أربعين .

قال الرجل يحدث نفسه : عرفتني رغم أسمالي البالية التي ارتديها رغماً عني . ربما لأن اللحية والشارب لم ينبتا بكثافة بعد . زمن غريب . الخادم يتسول منها سيدها . ينكـر أنـه السيد . تعطيه حسنة ولا تعرفه . وحينما تتعرف عليه ينكر أنه السيد . متى تنبت الذقن والشارب حتى يتم التخفي عـن العيون . إنك أملد لا ينبت لك شعر إلا قليلاً .. ولكن قد ينبت شعر خفيف وهل ذلك يكفي لإخفاء شخصيتك ؟ .. ها هـي المرأة تعرفت عليك .

سمع الفتى يسأل : هل تعرف تلك المرأة ؟ . أجاب : لـم أرها من قبل . لعلي أشبه واحداً من الناس تعرفه .

قال الفتى : ذلك واضح .

سمع الفتى يسأل وهو سادر في ألمه : لم تتسول ؟ ..

قال : أنا لا أتسول .. لقد أعطتني حسنة فلم أرفضـها . هل من الجائز أن يرفض الإنسان نذراً ؟ ..

عاد الفتى يسأل : ماذا تعمل ؟ ..

قال الرجل : لا أعمل حالياً .

عاد الفتى إلى السؤال : أقصد ماذا كنت تعمل ؟ ..

قال الرجل بعد أن فكر ملياً : كنت كاتباً في مخبز لكـن المخبز قُفل بسبب مخالفات تموينية.ولم أجد عملاً بعد ذلك .

سأل الرجل بعد صمت : وماذا تعمل أنت ؟ ..

قال الفتى : أنا لا أعمل حالياً .

سأل الرجل مبتسماً : أقصد ماذا كنت تعمل ؟ ..

أجاب الفتى : كنت أمسح وأنظف السيارات . ثم طردنـي صاحب الموقف . فلم أجد بداً من التسول .

سأل الرجل : ألا يوجد لك أب أو أم ؟ ..

قال : ولا حتى عم ولا خال . لي خالة فقط لكنها فقيـرة وطردتني لما أثقلت عليها . كنت أبيت عندها . ويبدو أننـي كنت آكل بشراهة فطردتني لهذا السبب .

قال الرجل : يبدو أن خالتك قاسية . وأين أبوك أو أمك ؟ ..

قال الفتى : ماتا منذ زمن .. في حادثة .. معاً .. وتكفلت بي خالتي إلى أن طردتني . وأنت ألـيس لـك أب أو أم أو زوجة أو أولاد ؟ ..

ارتبك الرجل ثم قال بعد لأي : ولا حتى أهل .. مقطوع من شجرة .

وأذن أذان العشاء فسأل الرجل : ألن تصـلي ؟ .. قـال الفتى مرتبكاً : نعم .. نعم .. سأصلي .. إذا كنت تريـد أن تتوضأ فأدخل من الشارع الجانبي حتى تصل إلى الموضأة .

نهض الرجل ، وهو لا يزال يلوك قطعة من اللحم في فمه . اكتشف أنها قطعة من الشغت . فبصقها من فمه وهو يسير . وفجأة برزت المرأة أمامه وهي تقول : أنت صديق عبـد المحسن . لا يمكن أن تنكر ؟ .. ارتد الرجـل خائفـاً . ثـم تشجع : نعم أنا صديق عبد المحسن . فماذا تريدين ؟ ..

قالت : أنا سمارة .. خادمتك .

قال : نعم .. أعرف .

تساءلت : ماذا حدث لك ؟ .. ما الذي غيرك هكـذا ؟ .. ماذا فعل بك الزمان ؟ ..

أطلقت الأسئلة دون توقف أو انتظار إجابات شافية ، قال : زمان أسود .. لونني بلونه .

سألت سمارة : أين تسكن ؟ ..

قال باقتضاب : لا أسكن .. أنا ميت بلا قبر .

قالت : لا تقل ذلك .. أنت ملء السمع والبصر .

سأل : هل من الممكن أن تتركيني ؟ ..

تركته يدخل الموضأة واغتسل وتوضأ . ثم مرق من باب الموضأة إلى ساحة المسجد ، ولاحظ أنها تنتظره .

انتهى وقت الصلاة . وقرر أن يخرج من الجامع . ورأى الفتى يمرق من بين المصلين ليتوارى في أحد الزوايا . شعر بالخجل أن يعود ويجلس من جديد بين المصلين الـذين لـم يغادروا بعد . ودفعته صفوف المصلين المغادرين أن يخرج من المسجد . وكان يحمل حذاءه في يده . وما كاد يخرج من المسجد من باب غير الباب الذي دخل منه ، حتـى وجـدها تقول له : لا تعتقد أنك ستهرب مني بسهولة يا سيدي .

(٢)

لم رفضت أن تذهب معها ؟ .. أليس من المستحسـن ألا تنام على الرصيف أو مستنداً إلى حائط أو حتى في حديقة ؟ .. لقد تبدلت علي هذه الأشياء وكم نالك مـن التعـب . إن النسائم الآن عليلة فما بالك لو امتد بك الزمن وجاء الشـتاء فأين ستجد المأوى ؟ .. الخادم أحسن من السـيدة . قامـت السيدة بالتصرف في الشقة ، باعتها ، واختفت هي والأولاد . لعلها اكتشفت أن الشرطة تطاردني فتتحول من الأمـن إلـى المطاردة هي وأولادها . كيف عرفت أن الشرطة تطاردني ؟ .. وكيف عرفت الشرطة أنني أومن بالمبادئ التي تسـميها هدامة ؟ .. هذه هي الآخرة لمن يؤمن بهذه المبادئ . لا يجد له مأوى . وقد يموت من الجوع . وإذا مات فلن يجد له قبراً . وما يضيره ألا يجد قبراً . إنه لن يحس بشـيء وسـيبلى جسده بعد حين .

وجدها تتبعه كظله .. أين يذهب من هـذه الخـادم ؟ .. ليذهب معها وليكن ما يكون . ليس في الذهاب معها جـرح

لكرامته أو هدر لعزة نفسه . ولكن ليذهب بكرامة . يلتفـت إليها ويسألها : ألن تتركيني في حالي ؟ ..

قالت سمارة : أتكون في هذه الحالة وأتركك ؟ ..

قال : وما هي هذه الحالة ؟ ..

قالت سمارة بامتعاض : حالة تصعب على الكافر .

سألها : وكيف أدخل في بيتك وفيه زوجك وأولادك ؟

قالت : لم يعد لي زوج ..

سأل : وأولادك ؟ ..

قالت : أخذهم زوجي عنوة .

قال : وهل أقبل أن أعيش معك .. وأنت وحـدك . مـاذا سيقول الناس عني وعنك ؟ ..

قالت دون أن تنظر إليه : لن يقولـوا شـيئاً وإذا سـألوا سأقول لهم إنك أخي .

لم يمانع . ولم يحاول الرفض . فرصة مأوى لاحت لك . هل هي عزة نفس ؟ .. كرامتك تؤلمك أن تعيش في كنـف خادمتك . أذهب وليكن ما يكون . على الأقل تختفـي عـن وجوه الشرطة . يكفي أنك شارد حتى الآن في الشوارع أكثر من أسابيع عشرة بلا مأوى . تأكل مـن القمامـة . وتكـاد

تتسول . وتعيش على شرب الماء من المساجد ترطب بهـا شفتيك الجافتين . لقد نفذ ما كان لديك من مال بعـد أسـبوع وتضورت جوعاً فتسولت . قال : طيب يا سيدتي .. هيا بنا وشعر بوقع كلمة سيدتي على نفسه فماذا كان وقعها عليها ؟ ..

سألته وهما في الطريق إلى منزلها : أين السيدة ؟ ..

قال : السيدة وراءنا ألا تريها .

ابتسمت لأنه لا يزال طبعه فكهاً : أقصد سيدتي أم الأولاد ؟ ..

قال متحسراً : باعت الشقة .. واختفت .. حاولـت فـتح الباب . فلما فتح صاحب الشقة الجديد استغربت سألته : من تكون ؟ .. قال : من أنت ؟ .. سألته ثانية : من تكـون ؟ .. قال : أنا صاحب الشقة .

أبرز لي عقد بيع الشقة المسجل في الشـهر العقـاري . سألته عن السيدة صاحبة الشقة أين ذهبـت ؟ .. قـال إنهـا باعت الشقة وقبضت الثمن وحملت حقائبهـا حتـى الأثـاث باعته له بموجب عقد مكتوب . سألت عن ملابسي . أجابني بأنه لا يعرف عنها شيئاً .

سألت الخادم بفضول : وما سبب أنها باعت الشقة ؟ ..

قال وهو يطأطئ الرأس : لا أعرف .

وبدا أنها لم تقتنع بكلامه .

أدخلته حجرة من حجرات شقتها . وقالت له : هذه كانت حجرة الأولاد بها ثلاثة أسرة . يمكن أن تختار واحدا منها . وأنا سأنام في الحجرة الأخرى .

سألته : هل تضع ملابسك في مكان ما .

قال : قلت لك إنها باعت الشقة وأخذت كل متعلقاتي منها ولا أعرف أين تقيم . صاحب الشقة قرر ذلك . قـرر أنهـا أخذت كل شيء . وكما ترين الملابس التي ارتديها اتسخت حتى تحولت إلى أسمال .

سألته بفضول : ألا تذهب إلى المدرسة التي كنت تعمـل بها ؟ ..

طأطأ رأسه وكاد يبكي . ربتت عليه وقالت : أدخل نم يا سيدي . وغداً نشتري لك منامة وملابس جديدة . غير هـذه التي بليت .

قال والعبرات تخنق صوته : شكراً .

يبدو أن الخادم تعمل بالمبادئ التي تؤمن بها توزيع الثروة والدخل . أخيراً ستنفق عليك خادمتك . وعليـك أن تنسـى

المبادئ التي كنت تؤمن بها بماذا نفعك الحـزب الشـيوعي المتستر بالأرض . لم تنل من ورائه إلا المطاردة . كانـت عضويتك به سرية . وكانت أعمالك سرية . ولم تخرج عن الاعتقاد بمبادئه . لكن ها هي النهاية لم تذهب إلى وظيفتـك وفقدتها . ولم تذهب إليه خشيت أن يكون مراقبـاً فتدوسـك الأرجل هناك . أرجل رجال الشرطة . وهجرتـك زوجتـك واحتضنت أولادك الأربعة . كأنك كنت تريد أن تزيد لهيب الشوق فيها فلم تكتف بتحديد النسل عنـد اثنـين إنمـا جعلت النسل أربعة ولدين وبنتين . والغريب أنـك شـيوعي مؤمن وتفتخر بذلك . وتدعي أنك تـؤمن بمبـادئ أبـي ذر الغفاري . مسلم اشتراكي . تؤدي الصـلوات الخمـس فـي أوقاتها ، وتؤمن بفناء الطبقات وإعادة توزيـع الثـروة . ألا تختفي الطبقات في الجنة ولا يشكو واحد من امتناع الخيرات عنه فلم لا نحقق الجنة على الأرض قبـل أن نصـل إلـى الفردوس ؟ .. لكن لم تقتنع بأن تتعدى الحدود ويكون توزيع الثروة بالقوة . كنت تؤمن بالديمقراطية . يجب أن يتصـالح الأغنياء مع الفقراء ويوزعون ثروتهم عن اقتناع . والآن لم

تنفع لا الاشتراكية ولا الديمقراطية . والمنادون بالاشـتراكية يطاردونك . وأصحاب الديمقراطية يستهجنون أفكارك .

رقد في السرير الأول . لأول مرة منذ أسابيع يجد مكانـاً مريحاً يسند إليه ظهره . أيكون الله قد عطف عليـه حينمـا صلى له العشاء بإخبات . إنه يصلي منذ زمن بعيد حتى وهو عضو في الحزب المنكوب فكيف لم يتذكره منذ بداية النكبة ؟ .. هل لأنه يقتنع بالأفكار الأخرى ؟ .. هو مضطرب بـين أفكار الآباء وبين أفكار الشيوعيين . لا يستطيع أن ينسلخ من الماضي ولا يستطيع أن يدافع عن الحاضر .

غاب في النوم من الساعة الثامنة مساء ولـم يشـعر إلا والساعة السابعة صباحاً تطرق عليه سمارة الباب وتقـول : لقد أعددت الإفطار . ألا تأتي وتأكل ؟ .. إن الفلافل سـاخنة . والفول كاللهيب . والجبن كالقشدة .

نهض وسأل عن دورة المياه فأرشدته . اغتسل . واتجـه بعد أن مسح وجهه بفوطة جافة . منذ متى مـن الأيـام لـم اغسل وجهي بماء وصابون وأصب مثل ذلك المـاء علـى وجهي ؟ .. تذكر أنه منذ يومين قرف من نفسه فدخل مقهى وطلب كوب ماء ودفقه على وجهه فما كان من العامل إلا أن

طرده من المقهى . كأنه ينبهه إلى أن الماء للشـرب ولـيس لغسل الوجه القذر المترب .

جلس وهو يحاول أن يطرد فكرة طبقية يرفضها . أيجلس السيد مع الخادم ؟ .. كيف إذن تبشر بزوال الطبقات والفكرة مدفونة في صدرك تنبثق من حين لآخر . وها هي تنبثق في هذا الوضع الجديد . سيد ينام في بيت خادمتـه . ألا تـذكر الحديث الشريف لا فضل على عربـي علـى أعجمـي إلا بالتقوى . يا أيها الحائر بين معلوماتك الدينيـة ومعلوماتـك الدنيوية كل . سمعها تقول : إنني استيقظ عند الفجر لأصلي وبعد ذلك يهرب النوم من عيني .

سأل : أتعملين ؟ ..

قالت : نعم أعمل عند سيدة صحفية .. لها ولدان ..

ثم قالت : سأترك لك نقوداً يا سيدي .. لا بد أن تشـتري لك ثياباً داخلية ومنامة وبنطلوناً وقميصاً وبلوفر يقيـك مـن برد الشتاء القادم .. البرد قادم لا محالة .

قال : لا تكلفي نفسك يا سمارة . أنا لن ألبث كثيراً عندك .

قالت معترضة : لا تقل ذلك .. إن هذا البيـت بيتـك .. وهو بيتك قبل أن يكون بيتي .

انتهت من شرب الشاي وأكل نصف رغيـف سـاخن . ووضعت خمسين جنيها بالقرب منه وهي تقول هـذه هـي النقود . أنا سأذهب إلى عملي .

لم تحاول أن تسأله إذا كان يعمل أو لا يعمل . ثم وضعت بجانب النقود مفتاح الشقة . وهي تقـول : المفتـاح لتـدخل وتخرج كما تشاء .

كتم الدموع في عينيه . كان مؤمناً بصراع الطبقات وحكم طبقة العمال في النهاية لتصنع استبداداً تزول بعده الطبقات . وهاهو الواقع يلطمه بشدة فأين هو الصراع الآن وهذه المرأة - خادمته السابقة - تعاونه . إن النظرية خاطئة من أساسها وكيف إذن تتقدم الأمم لولا تعاون الطبقات فيهـا . تعـاون الفقراء بجهودهم والأغنياء بأموالهم . حقاً في البداية يمـتص الغني دم الفقير لكن بعد حين يتقبل مطالبة الفقير بحقوقه .

رآها وهي تمشي . كانت ممشوقة القوام . صدرها بـارز مغطى . وردفاها صغيران . متوسطة القامة . تخفي شعرها بمنديل . ويبدو شعرها مجعداً . لم كانت تغار منها فاتن ؟ .. إنها لا تساويها في الجمال . ولكنها تغلبها في الأنوثة . فاتن كانت امرأة جميلة لكنها باردة . وسـمارة امـرأة متوسـطة

الجمال تفيض أنوثة . ربما لهذا السبب كانت تُغـار منهـا . وطردتها شر طرداً يوم أن كانت ترتدي ثياباً تكشـف عـن صدرها البارز . الناهد . وتبين ذراعيها المليئتين . تسـألها ماذا فعلت ؟ .. تجيب لا شيء أنا لا أريدك . ربما ظنت أن الفتاة كانت تغريني مع أني لم أكن بالبيت .

نظر إلى النقود وتساءل : ماذا تفعل خمسون جنيهاً فـي ذاك الزمن ؟ .. إن حرب اليمن أشعلت الأسعار . يقال إنهم يصرفون عليها مليون جنيه كل يوم وأوار الحرب لا ينطفئ . إنهم يشعلون النار ونحن الذين نحترق . ويقبضون علـى المعارضين ومنهم الشيوعيين . ولولا أنني تنبهت في اللحظة الأخيرة بملاحظة ذلك الشرطي المتخفي الذي يتبعنـي ليـتم القبض علي وأودع السجن الحربي بجدارة . لولا أنني أفلت منه لكنت نزيل المعتقل . اختفيت عن العيون ولمـا عـدت سراً إلى منزلي . . ماذا وجدت يا صنديد ؟ .. وجدت المرأة باعت الشقة واختفت هي والأولاد . وصاحب الشقة الجديـد يعارض في دخولي شقته . عرفت من البواب . أن الشرطة داهمتها فلم تجد إلا أن تفر . أين فـرت هـي والأولاد ؟ .. ربما سيكون عذرها - فيما بعد - لو التقيت بها - أنها لـم

تعرف أين اختفيت وخشيت من مطاردة الشرطة لها فاختفت هي الأخرى . لم تذهب إلى بيـت والـدتها التـي عصـتها وتزوجتني ، لأني راقبت المكان أياماً ولم أجدها تخـرج أو تدخل وأولادي لا يظهرون أما أمها فكانت تخرج وتدخل ولا يبدو على مظهرها أنها تخفي ابنتها وأولادي . ولم يكن بيننا كلام لأسألها عن حالها وحال ابنتها وأولادي .

والآن هل سأعيش عالة على سمارة ؟ . . هذه ضرورة تبيح المحظور . لأختبئ لديها بعض الوقت . وأخـرج الآن لأشتري ما يسترني ويجعلني أعود إنسـاناً ، فقـد اتسـخت ملابسي وتحولت إلى أسمال وكادت تتمزق وتتفتق . لأخرج من القبر . وهل الميت يخرج من القبر ؟ .. وأين هو القبـر يا وجيه ؟ .. أنت ميت بلا قبر . قتلوني مدنياً وألقوا بي إلى عرض الطريق ..

(٣)

رغم أنها لا تؤمن بالوفاء بالنذور غيـر أنهـا رضـخت لإرادة سيدتها الكبيرة ، وجعلتها تساق اللحم وتطبخ الأرز ، وتضعه في الأرغفة ، وتوزعه على فقراء حي السيدة زينب القريب من جاردن سيتي . ولم تكن تتصور يوماً من الأيـام أن تجد سيدها من بين المساكين في هذا الوضع المـزري . ذاك الرجل الذي عملت عنده وأكرمها كثيراً رغم أن زوجته كانت تغار منها كثيراً ، كانت تعاملها معاملة سيئة . أكانـت غيرة لأنها كانت في ذلك الوقت صبية حلوة كالعسل . أم هو طبع الأغنياء أن يعاملوا الفقراء بكبرياء وأنفة . واضـطرت أن تطيعها ولا تعارض في شيء حتى تكسب عيشها تقيم به أودها وأود أطفالها الثلاثة . فرجلهـا كـان معجبـاً بنفسـه نرجسي الطبع ، تفتن به النساء . ومن المعـروف أن ذلـك الأناني يمكن أن يتركها ويرحل ويترك أطفاله حتى لا يكونوا عبئاً عليه . ولكنه اختفى وهم معه لقد خطفتـه امـرأة دون أدنى شك لكن كيف تقبل أن يكون معـه أولادهـا ؟ .. أمـا الأخرى زوجة السيد صديق أستاذ اللغة العربية فقد خطفـت أولادها واختفت . أين إذن الغيرة التي كانت تبـديها علـى

زوجها ؟ .. وكيف تمكنت أن تقهر الحب وتغرب عن وجهه ؟ .. إن حظ ذلك المدرس مثل حظها . هي هربت بأطفالها . والرجل هرب بأطفاله . واجتمع المهجوران معاً فـي شـقة واحدة . مفهوم أن الرجل كان يتهمها في سـلوكها بعـد أن أنجبت له ثلاثة هم نسخ منه . فكيف يشك فيها ، فكيف كـان يشك فيها ؟ .. لكن المرأة كانت تغار عليه منها هي السمراء وكانت بيضاء . هي الفقيرة والأخرى ثريـة . هـي التـي تحترمه والأخرى كانت تتكبر عليه رغم حبها له . ماذا حدث بينهما حتى افترقا ؟ . الرجل - صديق عبد المحسـن - لا يتفوه بكلمة . يصف فقط كيف هجرته . باعـت الشـقة التي تملكها وهربت مع أطفالها لكن ما هي الأسباب . إنه لا يفسر .. ولا يقبل أن ينفس عما في نفسه . هل اكتشفت أنـه يخونها ؟ .. كانت تشك فيه وفيها . كانت نظراتها تشكك هي الأخرى . كانت تعتقد أن بينها وبين زوجها علاقات جنسية . كان لسانها ينطق بأن أطفالها الثلاثة هم منه . وكأنها تنكـر أنها تزوجت ذلك الميكانيكي الذي سمح لها بالعمل وأنجبـت منه حتى الميكانيكي كان يشك في نسب أطفاله له . فلـم إذن خطفهم منها واختفى . وهجر الورشة التي كان يعمل بها ،

قيل إنه ذهب إلى قريته التي لا تعرف لها اسماً . بكت على فراق أطفالها لكن عادت من جديد إلى المرح . فهو سلوتها . ربما لأنها مرحة تأخذ وتعطي في الكلام مع الرجـال ذلـك الذي أثار الشك في قلب زوجها . ولعل المرح هو الذي جعل زوجة صديق عبد المحسن أيضاً تشك فيها وفي زوجها . في مجتمعنا لا تستطيع المرأة أن تكـون مرحـة . ولكنهـا لا تستطيع أن تتوقف عن المرح . والحمد لله أن نـازلي هـانم شفيق ليست متزوجة ولو أنها ليسـت مطلقـة ولا أرملـة . زوجها على قيد الحياة لكنه منفصل عنها . لا يعيشان معاً في القصر . مفترقان منذ أمد بعيد . يقال إنـه تركهـا لسـوء سلوكها ، فهي تخرج مع الرجال . وتعمل في الصحافة مـع الرجال . ولو أنها غنية ولا تهتم بالمادة فهي لا تأخـذ مـن الرجال شيئاً . وقيل إن أفكارها متطرفـة . هكـذا سـمعت صحفياً زميلها يهمس في أذن صحفي آخـر . فـي إحـدى الحفلات التي تقيمها في قصرها من حين لآخـر . وكانـت توزع في هذه اللحظة مشروباً مثلجاً على الضيوف . سمعته يقول له : إنها عضو مؤسس في الحزب الشـيوعي . يـرد عليه زميله : غريبة . معظم أعضـاء الحـزب الشـيوعي

المؤسسين أغنياء . أنا اعرف دكتوراً في الجامعة من أثرياء الصعيد وعضواً بارزاً في الحزب الشيوعي . لم تقف كثيراً بجانب الصحفيين حتى لا تُتهم بالتنصت لذلك لم تسمع بقيـة ما قالاه عن سيدتها . لكن الغريب أنها لم تضبطها في أوضاع مخجلة . ولم يبق في قصرها رجل بعد أن رحل بقية الرجال . تصون عرضها . فمن أين قيل عنها إنها لا تحفظ فرجها ؟ ..

تعاصر طردها من لدى صديق عبد المحسن مع اختطاف زوجها الميكانيكي وهروبه بأطفالها . وكانت تعتزم ألا تعمل وتكن في بيتها . واضطرت أن تعمل من جديد وعملت لدى هذه السيدة الصحفية الثرية سيئة السمعة . والتي لم تشاهد ما يمس سمعتها إلا الكلام المزعوم . مثلها بالضبط حينما كـان يشك فيها زوجها وكذلك زوجة صديق عبد المحسن .

لم تكن وحدها تعمل في القصر . كان هناك الطباخ عبـد المقصود احمد ، وهو مرح مثلها ، وكثيراً ما غازلها ، ولـو أنها تصده .. خاصة بعد أن أصبحت شبه مطلقـة . امـرأة هجرها زوجها وأي غزل قد يسيء إلى سـمعتها . وكانـت هناك فكرية .. أين أنت تعالي كما كانت تسـميها سـراً

حتى تتذكر أغنية عبد الوهاب .. فكرية فين أنـت تعـالي .
وكانت تعد بمثابة مديرة أعمال السـيدة الثريـة : نـازلي .
ومعهم في البيت خالة السيدة نازلي تعيش فـي كنفهـا ولـم تتزوج . لا زالت عذراء ولا تحب الاجتماع مـع الرجـال بعكس بنت أختها . يبدو أنها كرهت الرجال وعـافتهم منـذ الصغر فلم تقترن بواحد منهم حتى تخطت سـن الـزواج .
وولدا السيدة الصحفية أيضاً يعيشان في كنفها .

كان هي عليها أن تنظف وتمسح وتكنس القصر الواسـع وحدها . كما تقوم برعاية طفلي السيدة وحدها : توتو وميمي . والغريب - رغم مرور سنوات على عملها لـدى السـيدة نازلي - لا تعرف ما اسم توتو الحقيقي ولا حتى ميمي . ولم يحاول الطفلان أن يعلماها باسميهما الحقيقيين . سيأتي يوم يا نفيسة ويمنعاك من مناداتهما باسمي التدليل . كانـت تنـادي نفسها باسمها الحقبقي بدلاً من سمارة . لكن مع الناس تحـب أن تنادى باسم سمارة لأنها سمراء . غير أن السيدة نـازلي كانت تستعمل معها اسم نفيسة . فانتظري فسوف يجبـرك الطفلان على مناداتهما باسميهما الحقيقيين حينمـا يصـيران

رجلين . وهل سأبقى في خدمة السيدة حتـى يكبـر!؟ .. لا أصدق .

دخلت في الصباح فوجدت السيدة نازلي جالسـة ، وقـد وضعت فخذا على فخذ ، وأمامها طفلاها واقفان خائفـان . وهي تصرخ فيهما : ساقطان في اللغة العربية .. لغة البلد .. أمن العار أن ترسبا وأمكما تعمل في الصـحافة .. وتكتـب المقالات باللغة العربية . ثم التفتت إليها وهي تقول : أجئـت يا نفيسة .. انظري ماذا فعل الولدان .. راسبان فـي اللغـة العربية .

تقول نفيسة كأنما وجدت بغيتها : أعرف مدرساً يا سيدتي .. يجعلهما يتفوقان .

قالت نازلي : والله .. أذهبي وأحضريه لهما .

قالت نفيسة : الآن سيذهبان إلى المدرسة وفـي الظهـر أذهب ونحضر معاً عند المغرب .

قالت نازلي وهي تلقي الشهادتين في وجهي ولديها ، بعد أن وقعتهما وتقول : خذاها .

بخوف من الأم الصارمة . يلتقط الطفـلان الشـهادتين . وهي تقول : ماذا لو عرف أبوكما . سوف يضيف صـفات جديدة إلي .. سيقول عني الأم الفاشلة .

لكن لم هجرها زوجها ؟ .. أهي حقاً سيئة السـمعة ؟ .. ربما . وربما يغار منها لأنها غنية وما هـو إلا رائـد فـي الشرطة لا يملك غير مرتبه . تعرف إليها في نادي الشرطة يوم ذهبت لتجري حديثاً مع لواء معروف في المرور . ظن اللواء أن من الممكن أن يقتنصها غير أنه لم يفز بها ، فـاز بها ذلك الرائد من معيته الخاصة . ولكنه لم يهجرهـا هـي التي طردته من قصرها لسوء سلوكه . عرفت نفيسة القصة من سيدتها ومن خالتها بالتدريج حتى تكونت لديها الصـورة كاملة ، وصل إليها الخطب غير منقوص . وعرفت أيضـاً أن الرائد عاش معها سنوات في سعادة بالغة ، ثـم دخلـت الغيرة - كما دخلت حياتها - لتنفث سمومها . ولـم يطـق الرجل الإشاعات حول زوجته . مرة تصل الإشاعة أنها على علاقة مع رئيس التحرير المتزوج . ومرة تصل له أنها على علاقة مع مدير قسم بالمجلة . ومـرة ثالثـة تصـل إليـه الإشاعات أنها على علاقة برجل خارج الوسط الصـحفي .

مليونير مستعد أن يقدم لها سيارة وفيلا وشاليه . ورغـم أن كل الإشاعات ثبت للرائد عدم صحتها إلا أنه لـم يتحمـل . انفصل عنها وترك الوالدين . ربما لأنه لن يكون قادراً علـى الوفاء بتكاليف تربيتهما . وأنها هي الثرية القادرة على ذلك . كانت هذه هي الصورة التي اكتملت عند نفيسة . لكـن هـل هذه هي الحقيقة كاملة ؟ ..

(٤)

دخلت عليه فوجدته مرتدياً منامة جديدة . وقد حلق ذقنـه الخفيف وشاربه . وهي تعرف أنه أملس الوجـه والشـارب بعكس زوجها المختفي غزير الشعر وكث الشارب كأنه يظن نفسه صقراً . أو يريد أن يوقـف علـى شـاربه صـقراً . وتساءلت : ماذا تفعل لو عاد زوجها ودخل عليها فجأة الآن ومعه أولادها ووجد ذلك الرجل في بيتها ويرتدي منامة ؟ .. ستقول له إنه عزيز قوم ذل أم إنه سـيدها ولا تتـردد فـي إكرامه . ما علينا إن الرجل هرب بالأولاد ولا عودة لـه . لكن ما السبب في ذلك التصرف ؟ .. لا تعـرف . إن فـي حياتنا يا سمارة أسراراً تحيطنا ولا نعرف شيئاً عنها ولا نجد لها تفسيراً . ألا يكفي أننا لا نعرف لم نحن على قيد الحيـاة في هذه الدنيا ؟ .. وما الفائدة من حياتنا ؟ ..

بادرته قائلة : أبشر .. وجدت لك مورد رزق .

قال : كيف ؟ ..

قالت : السيدة نازلي .. تلك التي أعمل عندها .. تحتـاج إلى مدرس عربي لوالديها .. ووعدتها أن أجد لها مدرسـاً .. ألست من مدرسي اللغة العربية ؟ ..

قال : بلى .. غريبة أنك لا زلت تذكرين ؟ . .

سألت : هل تعمل ؟ ..

قال : لا .. لا أعمل ؟ ..

قالت : إذن الوظيفة لك ؟ ..

ثم استغربت متسائلة : ألم تكن تعمل ؟ ..

لم يرد . هل يقول لها إنه انقطع عن العمل لأنه مطـارد ويخشى الاعتقال . وأنه انقطع عن العمـل ولا شـك أنهـم فصلوه . أم يسكت ولا يجيب . فضل التصرف الثاني . فالصمت إجابة بليغة للفضوليين . وسمعها تغيـر مجـرى الحديث وتقول : ما علينا .. سنأكل لقمة .. ثم نـذهب إلـى القصر في جاردن سيتي . لنتفق معها .

وضعت الطعام على المائدة . بطاطس محمرة . وباذنجان مقلي . وجرجير وخس وخيار وطماطم . هي تأكـل لـدى السيدة لكنها فضلت أن تأكل معه ولو أن الأكل يـدل علـى الفقر لكنه لقمة سائغة .

سألت : هل أعد لك السلاطة .

قال : لا داعي .. سآكل هكذا دون تخريط .

خلعت جلبابها الأسود الذي ترتديه فوق جلبـاب آخـر . جلباب بنصف كم ويعري صدرها . ولم يحـاول أن يركـز عينيه على مجرى الصدر . والتفت إلى الأكل . بعد أن يأكل طبيخاً وأرزاً ولحماً كل يوم مع طبق السلاطة . وبجانبه مياه غازية . الآن ماذا يأكل ؟ .. أتكفر بالنعمة يا أيها الشيوعي ؟ .. لم يكن يظن أنه في يوم من الأيـام سـيؤمن بالمبـادئ الماركسية وفي نفس الوقت لن يستطيع أن ينسلخ من جلـده القديم المبادئ الإسلامية حتى سخر منه بعض أصدقائه فـي التنظيم وسموه الشيوعي المؤمن .إنه حالة غريبة في دنيـا المعتقدات . إنه لا يؤمن أن الدين أفيون الشعوب - كما قيل له - ولكنه يؤمن أن الدين ينظف القلوب من الأدران ويدعو الناس إلى البر والتقوى ، وأن قاعدة المساواة مسـتمدة مـن الدين ، وأن قاعدة توزيع الثروة راجعة إليه ، تتمثل فيمـا يعطيه الأغنياء من صـدقات ومـن أمـوال الزكـاة . وأن الديمقراطية الاجتماعية عماد الدين . فكيف ينكر الدين وفيـه كل ذلك ؟ ..

ارتدى ثيابه الجديدة ليذهب معها إلى سيدتها نازلي شفيق . هو يعرف نازلي شفيق لكنها لا تعرفه . يعرف أنها مـن

قمم الشيوعيات في مصر . لكن ماذا يكون مدرس عربي في الكادر الكبير في الحزب . إنه قطرة في بحر . غير أنه لـم يذكر لسماره بأن سيدتها شيوعية حتى لا تتهمها بأنها منكرة لله ولا يجوز العمل لديها وتتركها وتخسر وظيفتهـا . هـو يعرف بنات البلد جيداً . إذا عرفن أن من يعملن لديهن ملحد لا تطيق العمل لديه . ولعل نازلي شفيق لا تظهـر للخـادم إلحادها . رغم أنها معروفة بذلك في الأوساط الصحفية وفي الحزب الشيوعي المدفون تحت الأرض . لكن هل سـتعرفه بمجرد أن تراه أم أنه نكرة غير معروف ؟ ..

لما صافحها تأملته ملياً وقالت : أنت مدرس للغة العربية ؟ ..

قال : نعم .. حاصل على ليسانس الآداب من قسم اللغـة العربية .. وقمت بالتدريس في المدارس الثانوية زهاء سـبع سنوات .

قالت : إذن أنت متخرج على الأقل منذ عام ١٩٤٧ على ما أظن .

قال : بالضبط كذاك .

سألت : وهل تعمل الآن ؟ ..

قال : حصلت ظروف حالت دون أن أستمر في العمل .. انقطعت عن العمل فربما تم فصلي . ولم أجد عملاً بعد ذلك .

سألت : وما هي هذه الظروف ؟ ..

قالت : كنت أبحث عن زوجتي وأولادي .. ولم أجـدهم فتعطلت عن العمل لذلك .

سألت نازلي : وأين تعيش الآن ؟ ..

تدخلت سمارة وهي تستمع لأسئلتها وإجاباته : إنه جاري يا سيدتي .

قالت نازلي : عندي ولدان خائبان في اللغـة العربيـة .. أريد أن تدرس لهما .. أريد أن يحصـلا علـى الـدرجات النهائية .. هل تستطيع ؟ ..

قال صديق عبد المحسن : الأمر متوقـف علـى مـدى استعدادهما .. ولكني سأبذل معهما جهداً لا ينكر . سأحاول ..

سألته : ما اسمك ؟ ..

قال : أبو بكر عبد الجواد .

نظرت إليه سمارة باستغراب وتساءلت على الفور : مـا الذي يدعوه إلى أن يغير اسمه .. ربما هناك علة لا أعرفها . غير أنها لم تنطق بكلمة .

نادت الأم الطفلين : تامر وسـامر . لأول مـرة تنطـق اسميهما أمام سمارة . لعل تدليلهما بتوتو وميمـي لا يجـوز أمام مدرس فيجب عليها أن تنطق اسميهما الحقيقيين .

قال لهما : أذهبا واحضرا كتب اللغة العربيـة فالأسـتاذ سوف يقوم بتدريسها لكما . تامر في الابتدائية .. وسامر في السنة الخامسة الابتدائية .

قال الرجل : لا أهمية للأمر .

التفتت نازلي إليه وسألت : كم تريد أجراً ؟

قال : ما تجودين به ؟ ..

قالت : أجود بتسع جنيهات في الشهر لكل واحد منهمـا . أي ثمانية عشر جنيهاً .

قال بتواضع : نعمة .

سألت نازلي وهي لا تزال تجلس في عظمة ، وهو جالس أمامها بتواضع : هل تعطيهما درساً الآن ؟ ..

هز رأسه ونفيسة تذهب لتحمل معهما كتبهما : لا مانع .

نظر صديق إلى الكتب الدراسية الخاصة بتامر وسـامر . قال مبتسماً : في الظروف العادية يمكن أن نبدأ بالكبير ثـم الصغير . لكن لا بأس أن نبدأ بالصغير ثـم الكبيـر . فقـد يستفيد الكبير ويتذكر ما يأخذه الصغير .

قال تامر الكبير : لا مانع .

انتهى صديق من الدرس الأول ، ومضى الولـدان إلـى حجرتهما . بينما جاءت نازلي إلى حجرة الجلوس التي عقـد فيها الدرس ، وهي تحمل ملفاً كبيراً في يدها . ولـم تكـن نفيسة موجودة . وقالت تسأل صديقاً : يبدو أنني رأيتك قبـل ذلك اليوم يا أستاذ أبو بكر .

قال : ربما ..

إجابة لا تفيد الكذب ولا تفيد الصدق . أطلقها صديق حتى لا يتهم فيما بعد أنه كذب عليها . وكان قد رآها لأول مـرة وهو يسجل اسمه لدى التنظيم ويدلي ببياناته .

قالت نازلي : أحب أن أقول لك شيئاً .. ربما لا تعرفه .. أنا سكرتيرة تنظيم الحزب الشيوعي في مصر .

هز رأسه مغتصباً ابتسامة ، فهو يعـرف ذلـك ولكنهـا تجاهر به ، وهو أمر لا يجوز مع الأغراب . وراحت تقول وهو يذكر نفسه بأنه ليس من الأغراب : أخذت أفكـر أيـن رأيتك من قبل .. أين رأيتك . راجعت أسماء الأعضاء أولاً فوجدت صورة لك لكن تحت اسم صديق عبد المحسن الهيهي . أليس ذلك اسمك ؟ ..

اسقط في يده وقال وهو يشعر بالخجل : مضبوط .

سألت : وماذا عن اسم أبو بكر عبد الجواد ؟ ..

قال صديق مبتسماً : اسمي أيضاً فأنا أبي وأمي سـمياني صديق عبد المحسن الهيهي . وأنا مارست حريتي فسـميت نفسي أبو بكر عبد الجواد .. اسم حركي . ضحكت وسألت : وأين الهيهي ؟ ..

قال يضاحكها : ذهب إلى ههيا .

إنه أمام امرأة حديدية ، حادة الذاكرة لا تنسى صور مـن تقابلهم ، وقد قابلته من قبل وهو يقدم أوراقه إلى التنظـيم ، ولم تنس صورته لا زالت مغروزة في ذاكرتها وتأكدت منها لما رأتها مرة أخرى في طلب الانضمام إلى الحزب .

سألت : هل أنت هارب من الشرطة ؟ ..

قال : سمعت أنهم يقبضون علـى الشـيوعيين وقبضـت الشرطة على زميلين معي في المدرسة فـآثرت أن اختفـي حتى تنتهي الضجة . ويبدو أن الشرطة ذهبت إلـى بيتـي . وعرفت زوجتي أني شيوعي ، فباعت شقتها التي نسكن فيها . واختفت هي والأولاد . ولم تذهب حتى لمنزل أمهـا ولم أجرؤ أن أذهب إلى بيت أمها أو أي قريـب لهـا لأن لا صلة لي بهم أولاً وخشيت أن تكون الشرطة تراقبهم كما لـم أذهب إلى قريتي خشية أن تكون الشرطة تتربص بي هناك . وفي القرية لا يوجد لي أقارب كثيرة أغلبهم هاجر منهـا ولا أعرف أحداً هناك الآن . أصبحت شريداً في الشوارع إلى أن استضافتني سمارة . كانت تعمل لدي في الماضي وعرفتني .

سألت : أنا أعرف أن اسمها نفيسة ؟ ..

قال : هذا اسم حركي لها . فضحكا معاً .

نظرت إليه بإمعان وقالت : تعال وعش في هـذه الفـيلا أعطيك حجرة . ولن تعرف الشرطة لك مكاناً . بيتي حصن منيع لا تستطيع الشرطة أن تقربه . نفوذي معروف رغم أني أجاهر بأني ماركسية .. أجاهر في الصحافة وفي النادي وفي أقسام الشرطة أيضاً ولو أنهم جميعاً يظنون أنها دعابة .

قال صديق دون أن يدري : ما شاء الله .

نظرت إليه بسخرية وقالت : يبدو أنك لا تزال تجمع بين الأساطير وبين الحقائق في جعبتك .

(٥)

ماذا يفعل الآن ؟ .. الحيرة تتملكه . إنها امرأة متمكنة يا صديق ، وستجد لديها الحماية . وسـوف تقـوم بالتـدريس لواديها .. وفي نفس الوقت ستعطيك راتباً . وسوف تختفـي عمن لا اسم لهم . ونفيسة امرأة مسكينة إذا صرفت عليـك يوماً فلن تصرف عليك بقية الأيام . وهـل لـو اسـتمررت أتقاضى راتباً اسمح لها أن تصرف علي ؟ .. لكـن نـازلي شفيق ليست متزوجة بل ليست مطلقة . ومـاذا لـو عـرف زوجها أو طليقها بوجود رجل في بيته .. أو حتـى بيتهـا . ونفيسة أيضاً امرأة متزوجة أو هجرها زوجها . مـاذا لـو عرف أن رجلاً يسكن في البيت ؟ ..

عاد إلى المنزل . خرج من القصر دون أن تشعر نفيسـة بخروجه ، حتى لا تدعي أنها أنهـت أعمالهـا قبـل الأوان وانصرفت وغضبت منها السيدة . ويبدو أن سيدتها غضوب .

وبعد ساعة أو أكثر عادت نفيسة تحمل في يدها الفلافـل والفول والجبن كأن الدنيا ليس فيها غير ذلك . ثـم اكتشـف أنها أضافت لها الحلاوة . سألها : هل تعيش السيدة نازلي مع زوجها ؟ .. قالت : لا .. طردته من البيت لكنه لم يطلقها .

إنه زير نساء وسكير رغم أنه رائد في الشـرطة . وتعـيش معها خالتها العانس . سيدة متقدمة في السن غيـر متزوجـة برأت من مرض عضال وأقسمت أن أوزع لها نـذراً أمـام مسجد السيدة زينب في ذلك اليوم الذي التقيـت فيـه بـك . وللسيدة نازلي هذان الولدان ولا يطلبهما أبوهمـا لحضـانته لأنه يخشى على نفسه من مصاريفهما . ويخشى أن يطلبهـا لبيت الطاعة عن طريق المحكمة فتجهر بما لديها ضده مـن أنه زير نساء وسكير . تصور أن لديها صوراً لزوجها مـع نساء في أوضاع مخجلة . وهـو يسـكر ويشـرب الخمـر ويرقص مع النساء الغانيات لكن الغريب أن أحداً لا يعـرف في عمله عنه شيئاً مما يقترفه . ويبدو أنها هددته بفضحه لو فكر أن يطلبها لبيت الطاعة . ظاهره غير باطنه . كل هـذه الحكايات عرفتها من خالتها .. ومنها في بعض الأحيـان . خالتها سيدة متواضعة ثرثارة لا تجد في البيت غيري تثرثر معه . وأنا مودع أسرارها .

إذن لا خطر لو ذهبت يا صديق لتسكن الحجـرة التـي تدعوك لأن تأوى إليها في دارها . لكن يبدو أنها امرأة جبارة . ألا تخشى على شخصيتك أن تذوب أمامها . كيف أخشـى

على نفسي منها وفاتن زوجتي كانت امرأة ثرية وتزوجتهـا رغم أنف والدتها ولم تسطع أن تمحو شخصـيتي ؟ . لقـد محتها يا هيهي بأن باعت الشقة دون أن توافق . ونادراً ما يتملك أحد شقة في هذا الزمن ويبيعها . لقد اشـترتها حتـى تكون عش الزوجية ، لما عرفت أنني مدرس مبتدئ لا يملك حتى أن يؤجر شقة . وحتى تربطك بها أنجبت لـك أربعـة أولاد . ولكن حينما أرادت أن تحل وثاق الزوجيـة باعـت الشقة وهربت بأولادها . أين هربت ؟.. وهل سأبحث عنهم ؟ .. لن أبحث عن أحد .

دخلت عليه ، وهو يحاول أن ينام . وكان يقلـب مشـكلة المرأتين في ذهنه . جلست عند حافة السرير فاعتدل .

سألت : ألا تصارحني بما حدث لك ؟ ..

قال صديق : كيف أصارحك ؟ .. وقد تتصرفين مثل فاتن زوجتي ؟ ..

قالت : لقد دعوتك إلى بيتي . ولم أهتم بكلام الناس . لكن أريد أن أعرف كل شيء عنك . كنت مدرساً محترماً فأصبح لا مأوى لك . ألا تصارحني بالحقيقة ؟ ..

قال : أصارحك .. ولك أن تحكمي .

قالت : قل .

قال : أنا عضو في حزب ممنوع ..

سألت : ماذا تعني بكلمة ممنوع ؟ ..

قال : يعني حزب تمنعه الحكومة . وتـم القـبض علـى زميلين لي في نفس الحزب وهما يعملان معي في المدرسـة التي كنت أعمل بها لذلك اختفيت عن الأنظار . وذهبت سراً إلى بيتي . أنت تعرفين أن الشقة ملك فاتن زوجتي .

هزت رأسها وهو يواصل : وجدتها باعت الشقة . أيـن أذهب ؟ .. أين أنام ؟ .. لم أذهب إلى العمل خشية القـبض علي . ولم أجد نقوداً تكفيني في جيبي لأسكن في فندق ولـو درجة لا تلومني .

ابتسمت وقالت : بيتي بيتك .

قال : أليس باسم زوجك ؟ ..

قالت : لا أعرف له مكاناً .. منذ ثلاث سنوات . سـرق الأولاد وهرب بهم .. في نفس اليوم الذي طردتني فيه السيدة فاتن .

سأل : ولم سرق الأطفال ؟ ..

قالت : لا أعرف .. هكذا ما حدث .

قال : ربما يغار عليك .. وظن أنك ...

قال : كان قد منعني من العمل . ورغم ذلك عملت لديكم . واستمر يعترض على عملي لديكم . وكان يشـك أن لـي علاقة بك . بل السيدة فاتن ظنت أن لي علاقة بـك . وقـد آلمني الموقف يومها . يوم طُردت ويوم هرب مع الأطفال . يومها كنت قد قررت ألا أعمل لكني اضطررت للعمل بعـد اختفائه وعملت عند السيدة نازلي . لما وجدت نفسي سـوف أموت جوعاً وفقراً .

ثم كأنها تذكرت شيئاً : لكن كيف تهجرك السيدة فاتن ولا تقف معك . كانت تغار عليك وتحبك حباً جماً . وكما قلـت لك لقد طردتني لأنها ظنت أنني على علاقة بك .

قال وهو يستغرب : أكانت تظن أن هناك علاقة بيننا ؟ ..

قالت : هكذا ألمحت لي وهي تطردنـي . نصـحتني أن أكون مستقيمة في عملي القادم . ففهمت من كلامها أنها تظن أنني كنت أغازلك أو أعاكسـك .. وأخيـراً اقتنعـت أنهـا مهووسة بك .

سأل : وهل غازلتني يا سمارة يوماً ؟ ..

قالت : أبداً يا سيدي .. لم يحدث .. وأنت شـاهد .. ألـم اقول لك إن لديها مبادئ هوس .

كانت تجلس على السرير ، وهو قد ربع قدميـه وجلـس يثرثر معها . وتأملها فوجد ترتدي ذلك الجلباب الذي يكشف عن صدرها البارز وذراعيها المدملجين .

قال وهو يزفر : أه .. راحت لحالها يا سـمارة . سـوف أشعر بالوحشة من غياب الأولاد .. لكن ماذا أفعل ؟

قالت : أنت حظك مثل حظي . سرقت زوجتك أولادك .. وسرق زوجي أولادي . فقط مدام نازلي هي التـي تتمتـع بوليديها . وتسمح من وقت لآخر أن يذهبا إلى زوجهـا .. أو هو يأتي ليراهما .. ولكنها لا تقابله .. خالتهـا هـي التـي تسيطر على اللقاء .

سأل : كم ولداً لديك يا سمارة ؟ ..

قالت : ثلاثة .

ثم قالت : أثقلت عليك .. ولكنك أرحتني .. سوف أتركك لتنام .

سأل : ألا يوجد حواليك حجرة أسكن فيها يا نفيسـة ؟ .. خاصة أن بعد أن رتبت لي مدام نازلي ذلك الراتـب فمـن الممكن ...

قاطعته وهي تنهض لتذهب : أسأل لك . ولكـن لا تهـتم بشيء . يمكن أن تبقى إلى ما شاء الله .

قال : والناس يا سمارة .. وكلام الناس .

قالت : قلت لك لا تهتم .. سوف أقول لهم إنك أخي .

سأل : ما اسمك بالكامل يا نفيسة ؟ ..

قالت : اسمي نفيسة عبد الموجود عبد التواب .

قال : وأنا اسمي من الآن فصاعداً أبو بكر عبد الموجـود عبد التواب .

قالت : وعبد الجواد ؟ ..

(٦)

سألته : هل تجيد كتابة المقالات ؟

قال : كنت احصل في الإنشاء على تسع درجـات مـن عشر .

سألت : هل هذا يكفي أن تكتب مقالة ؟ ..

سأل هو الآخر : لماذا تسألين ؟ ..

قالت : كنت أريد أن أجد لك في المجلة وظيفة تعمل فيها . تكون ثابتة .

سأل : وكيف سأظهر على الملأ ؟ ..

قالت : وما المانع ؟ .. أنا أظهر على الملأ .

قال : أنت سيدة حديدية .. لك نفوذ . لن يتمكن أحد مـن التعرض لك . أما أنا أو غيري فكائنات هشة .

قالت : يمكنك أن تصبح كذلك بقليل أو كثير من الحكمة . المهم فيم يمكنك أن تكتب ؟ ..

قال ضاحكاً : في النحو والصرف .

قالت ساخرة : ومن يقرأ لك ؟ .. بل من ينشر لك ؟ ..

قال بجدية : أكتب في الأدب .. في القصص والروايـات والشعر .

قالت وهي تعطيه ظهرها لتجلس : لا .. سوف ينافسك كثيرون في المجلة . كل صحافي يظن أنه أديب . ويريد أن يكتب في الأدب . وليس من السهل قبول كل من يكتب في الأدب .

قال : أكتب في الدين .

امتعضت .. أنت تمتعضين لأنك لا تؤمنين بشيء . وسمعها تقول بعد تفكير : لا مانع . ولكن حذار أن تقول إن الدين أفيون الشعوب . أو تجرح في المعتقدات الدينية . سوف يضعون الأصفاد في يديك ولن يرحمك أحد .

قال : وهل أنا مجنون ؟ .. .

سألته : هل تعرف مكان المجلة ؟ ..

قال : وهل أحد لا يعرف مكانها ؟ ..

إنه يدنو من الثلاثين وأنت تعديت الأربعين . أتغرمين به ؟ .. أم أن الزبائن قد انفضوا من حولك . لا زلت أتمتع بشبابي . وسوف أثبت لك ذلك .

نهضت وهي تمسك يده كأنما تتوكأ عليها . وقال : تعال معي .. سوف أنقذك من خطر محدق .

ترك يده الخشنة في يدها الناعمة الصـغيرة . لا يـدري كيف انقاد إليها . أعطته منذ قليل راتب شهر مقدماً . رفعته مـن ثمانيـة عشـر جنيهـا إلـى عشـرين فكيـف لا تتملكه ؟ ..

دخلت به حجرة نومها . ماذا تريد هذه المرأة منـك ؟ .. قد تكون خلعت كل القيود من حياتها . لكن هل لديها يقـين أنني خلعتها أنا الآخر ؟ ..

امتدت يدها إلى ملف كبير موجـود علـى مكتبهـا فـي حجرتها . استخرجت منه طلب عضويته بالحزب . وأعطته إياه وقالت له : مزقه بمعرفتك . فإذا تصادف ووقـع ذلـك الملف في يد الشرطة . وأظن أن ذلك لن يحدث . لن يجرؤ واحد على دخول داري . تكون في هذه الحالة مطمئناً أنـك مزقته بيدك ولن يأتي اسمك في أي تحقيق .

أمسك بالطلب ، ورأي فيه صورته ، ورأي فـي خاتمـة الطلب توقيعه . نزع صورته ووضعها في جيبـه . وطفـق يمزق الطلب . أمسكت به فارتعد . لأول مرة يرتعـد مـن النساء ولو أنه كان قليل الاتصال بهن . إنه لم يرتعد حينمـا ضم إليه زوجته فاتن قبل الزواج في أحد ملاهـي الهـرم .

ولكنه الآن يرتعد . ويرتجف . ولثمته في شفتيه واسـتغرقت القبلة طويلاً حتى اختفى الارتجاف منه وبـدأ يتعـود علـى ضمها . ثم قالت وهي لا تزال تضمه . هذه قبلة الوداع من الحزب . أثارته فعلاً وهو المحروم .. حرمانـه زاد علـى شهر . فضمها إليه ولثمها مرة أخرى . كانت القبلة أقل وقتاً من الأولى وسمعته يقول وهي مغمضة العينين : وهذه قبلـة اللقاء بأمينة تنظيم الحزب .

لم تصدق أنه بهذه المهارة ، لكنها تذكرت أنـه أمضـى حوالي سبع سنوات متزوجاً . اسـتغربت فقـط أن تهجـره زوجته وتخطف أطفاله وتبيع شقتها رغم أنها تحبه ورغم ما فيه من رجولة لا تقاوم . إنه من هؤلاء الفقراء الذين يمكـن أن تُفتتن بهم النساء .

في اليوم التالي ، ذهب إلى المجلة ليقابلها . قدمتـه إلـى رئيس التحرير قائلة : أبو بكر صحفي جديد يريد أن يعمـل معنا .

قال رئيس التحرير متفكهاً : على ضمانتك يا نازلي ؟ ..

ثم قال : وهل أنا أستطيع أن ارفض لك طلباً ؟ .. وفـيم سيكتب ؟ ..

قال : معه ليسانس آداب قسم لغة عربية .. سيكتب فـي النحو والصرف .

حملق فيها رئيس التحرير معترضاً : فقالت على الفور : أصدقت ؟ .. دعه يكتب في الدين . فهذا باب ينقص المجلة .

سال رئيس التحرير : هل كتبت شيئاً ؟ ..

أبرز صديق مقالة كان يخبئها في جيبه كتبها بـالأمس .

وقرأ رئيس التحرير : مذهبكم هو الأفيون .

أخذ رئيس التحرير يقرأ ثم يقرأ . ونازلي تنتظر جالسـة وصديق ينتظر الانتهاء من القراءة مضطرباً . وقـال فـي النهاية : سوف تؤلب عليك نصف المجلة . غير أني أحـب ذلك . أحب أن أعيش صراع المذاهب .

سألت نازلي : ماذا كتب ؟ ..

قال : مذهبكم هو الأفيون . حملقت فيه نازلي ممتعضـة وقالت : هل هذه بداية يا أبا بكر ؟ ..

قال رئيس التحرير وكان يناوئ نازلي في مذهبها المعروفة به : إنه يقول الحقيقة يا نازلي . عن التعاون بين الطبقات هو وسيلة التقدم .. ولا يوجد صراع دائم بينها .

سألته غاضبة : ومن أين جئت بالمراجع في ذلك يا أبا بكر .

رد عليها رئيس التحرير قائلاً : وهل هناك مراجع تذكر في مقالة صحفية يا نازلي ؟ ..

(٧)

لاحظت نفيسة أن حمامها يكون مبتلاً حينما تعود من عند سيدتها نازلي . يسبقها دائماً الأستاذ صـديق إلـى الشـقة ، وهناك يستحم . لم يعد يستحم في الصباح - كما هي عادتـه - أتكون المرأة قد أوقعته . كثيراً ما وصل إليها خاصة مـن خالتها أن لها علاقات مع بعض الرجال خـارج قصـرها . خالتها تمتعض لكن لا تستطيع أن تنهرها لأنها قـد تتهمهـا بالافتراء . إنها تخرج لمقابلة الرجال وتلتقـي بهـم خـارج القصر . وتفسر الخالة أن تلك علاقات غراميـة لكنهـا قـد تكون علاقات عمل . ولكن هل كسرت القاعـدة وصـارت تلتقي بصديق في حجرة نومها ؟ .. ومتى ؟ .. ربما وهـي تشتري حاجات للدار . وكيف لم تلاحظ خالتها أو ولـداها . إن خالتها تغط في نوم عميق منذ الساعة السابعة والنصـف بعد المغرب . تصلي العشاء وتهجع في فراشها . والولـدان يستذكران دروسهما وحدهما بعد أن ينتهـي المـدرس مـن تلقينهما الدروس ، إذن فنازلي تقوم بإرسالها في مهمة يومية لتقتنص صديقاً . لكن ألا تعرف أنـه متـزوج ؟ .. وهـي متزوجة ؟ .. وأنت أيضاً يا محروسة متزوجة . ولا يجـوز

لرجل أن يمسسك غير زوجك . إذا أسرعت وطلبت الطلاق فقد يحجم صديق عن مضاجعة المرأة ويلتفت إليك . وهـل ألتفت إليك وأنت تعملين في بيته ؟ .. يشهد الله أنه كان عفـاً مستقيماً لا يرفع عينه في عيني . إنك تتوهمين أشياء تحدث . ولن تحدث .

شعر ، وهي تدخل عليه الحجرة ، كأنما تفتشه بعينيهـا . وتريد أن ترى على صفحة وجهه بصمات نازلي . قالـت : مساء الخير . ثم سألت : هل أعد لك العشاء ؟ ..

دنت منه وقالت : أصبحت تستحم في المساء . وليس في الصباح كما كانت عادتك . أذكر أنك كنت تسـتحم فـي الصباح بالماء البارد حينما كنت أعمل لديكم .

قال : كان التراب يملأ الكون اليوم .. ووجدت أن خيـر السبل لإزالته أن استحم .

جلست بالقرب منه . وهو على فراشه وقالت : هل أنـت مبسوط الآن ؟ ..

قال : الحمد لله .. أنا في منتهى السعادة . بعد شـقاء دام أياماً .. السعادة تطاردني .

ابتسمت من تعبيره وقالت : وماذا بعـد أن عملـت فـي المجلة ؟ ..

سأل : ماذا ؟ .. ماذا؟ ..

قالت : أقصد هل ستستمر في التدريس لولـدي السـيدة نازلي ؟ ..

أجاب بتمعن : إن المرأة .. يا نفيسة (يكلمها رسمياً كأنه نسى اسم سمارة) .. قامت بعمل أفضال كثيرة لي. وأنـا لا أستطيع أن أتنصل من اتفاق اتفقت فيه معها .

أنفاسها اقتربت من أنفاسه . سوف تعرفين الآن يا نفيسـة إذا رفض .. فمعنى ذلك أنه كان مـع نـازلي . وإذا وافـق فمعنى ذلك ألا علاقة له بنازلي . ولكن قـد يكـون فحـلاً ويتجاوب معك ؟ ..

سألت : هل ينقصك شيء ؟

قال : ماذا يريد الإنسان غير مأوى وطعام وعمل ؟ ..

وضعت يدها على ذراعه كأنما تستثيره وسألت : ألا تفكر في السيدة فاتن مثلاً ؟ ..

قال : محمد فوزي شدا بأن من يهواك أهـواه .. ومـن ينساك أنساه .. يا قلبي .

ضحكت وقالت : يا قلبي .

يبدو أنها أدركت أنني على علاقة بنازلي . فلم لا تكـون لها بي علاقة ؟ . خاصة أنها تدرك أنها ذات فضل علـي .. فإذا كان لنازلي فضل واحد فإن لها عشرين فضلاً .

قالت وهي تضمه إليها وهو يبدو مستسلماً : يا قلبي .

زحزحها قليلاً ثم قال : لو كنت غير متزوجة يـا نفيسـة لتزوجتك . فنعم أنت امرأة . غير مهم أنني متـزوج ولكن الخطر كله يكمن في أنك متزوجة .

سألت : أليس من الممكن أن اطلب الطلاق ؟ ..

أمسك بذراعيها البضين وقال : نعم .. حينئذ أكـون لـك وأتزوجك . يمكن الآن أن أزني بك لكن سيكون ذلك عـاراً علينا . فما المانع أن تبحثي عن محام وتطلبي منه أن يرفـع لك قضية . وسيحكم القاضي لا محالة بتطليقك لأن زوجـك هجرك منذ سنوات وغاب هذه المدة الطويلة .

إذن فهو لا يريد أن يخوض معها بحار اللذة بحجة أن ما سيفعله حرام هو خوض في مستنقع الخطيئة . وواجه نفسـه قائلاً : أليس ما يرتكبه مع السيدة نازلي حراماً هو الآخـر ؟ .. فلم يرتكبه ؟ .. قال يراجع نفسه : إن ما أرتكبه مع نازلي

أنا مضطر إليه لأني لو لم أفعل ذلك فسوف تطردني وتمنـع عني التدريس لواديها وما أتقضاه نظيـر التـدريس . وقـد تطردني من العمل في المجلة التي لها فيها نفوذ لا يقهـر . هل تفهم نفيسة ذلك ؟ .. وهل ستتزوجها يا صديق لـو تـم طلاق نفيسة ؟ ..

انسحبت نفيسة من فراشه منكسرة كأنما طعنها في فؤادها . وذهبت لتقوم بإعداد مائدة العشاء وهي ترتجف لأنهـا لـم تتمتع به . وهو يذكر نفسه : حان الوقت يا صديق أن تبحث لك عن شقة .

قال لها وهما يتعشيان : أتعرفين يا نفيسة أنك أحسن بكثير من فاتن .

سألت : هل هذا إطراء ؟ ..

قال : لا .. أنا أقول الصدق .. لقد اختفت بالأولاد وباعت شقتها ولم تقف بجانبي تناصرني . وأنت آويتني واستضفتني ولم تهمك أحاديث الناس ومطاردة الشرطة لي . تعلمين أننا لو تورطنا معاً فإن ذلك ستكون عواقبه وخيمة . ماذا لو حملت ؟ .. وأنت لا زلت زوجة . وأنا لا زلت أُعرف بأني أخوك ؟ ..

قالت : لم أكن لأسمح بذلك ؟ ..

قال : نعم .. وقد شعرت فعلاً أنك قوية الإرادة .

" أي إرادة تدعي ؟ .. أنا أذوب .. ذبت بين يديك وأنـت لا تدري . ألا تعرف أن رجلاً لم يمسسني منذ ثلاث سنوات " .

قالت كأنما تمهد له الطريق : إن أحداً لم يسألني من تكون ؟ .. ربما لم يرك أحد . وربما لأني أعود بعد الساعة الثامنة وأخرج مبكراً فلا يلتقي بي أحد .

قال بهدوء : أظن أنه حان الوقت أن أبحث لي عن شـقة أو حتى غرفة انتقل إليها .

سألت : لم ؟ .. هل أزعجك أحد ؟ ..

ثم همست لنفسها : " ربما تريد أن تسلخ حياتك من هنا . حتى لا تتزوج من خادمتك السابقة . هذا مفهوم يـا أسـتاذ صديق . " .

قال : أبداً .. ولكن أصبح من الضروري الانتقال .

قالت : لم لا تذهب إلى الحجرة التي كانت مـدام نـازلي تريد أن تمنحها إياك .

نظر إليها بانزعاج وسأل : هل قالت لـك إنهـا سـوف تمنحني غرفة ؟ ..

قالت مرتبكة : لا .. لم تقل لي . إنما قالـت لخالتهـا .. وخالتها أبلغتني .

هز رأسه نافياً وقال : أنا لا يمكن أن أعيش هناك . لا بد من البحث عن شقة أو حتى غرفة .

" أبحث ، فأنا أعرف أنك اغتنيت . وعاد لك اعتبارك بعد أن جعلتك تعمل صحفياً . لا يمكن أن تعيش مع خادمتك يا سيد صديق . لقد عشمت نفسي بشيء لا يجـوز . كيـف فكرت أن أكون لك وأنت لست لي ؟ .. "

(٨)

ألا يعد ما تكتبه نفاقاً ؟ .. تكتب كلامـاً لا تـؤمن بـه . وتتصرف تصرفات لا تعتقد فيها . أبداً . أنا مؤمن بكل كلمة أكتبها . أومن ألا صراع بين الطبقات . وإنما هناك تعـاون بينها . أومن بالديمقراطية هي الوسـيلة الوحيـدة للتقـدم . وليست الدكتاتورية وخاصة دكتاتورية البيرولتاريـا . لكـن زملاءك يمتعضون يا فتى . والدعوة إلى الديمقراطية تثيـر اشمئزاز القيادات العليا .

دخلت عليه نازلي في مكتبه في الحجرة الضـيقة التـي أعطيت له ليكتب فيها في المجلة . سألته : ما هذا الذي تكتبه يا أبا بكر ؟ ..

قال : ألم يعجبك ؟ ..

ثم قال : كيف ؟ .. أظنك تفهمين مغزاه .

قالت : ما هو مغزاه ؟ .. إن الدين لا يعطل العقول بـل يشحذها . وأن حكم البيرولتاريا غير موفـق . والعمـال لا يمثلون في المجتمع إلا نسبة ضئيلة لا تصل إلى خمسة فـي المائة .

قال : ألم أذكر إحصائيات بذلك . أنا لا اكتب عن فراغ . كم هي نسبة العمال في خضم هذه الفئات : أصحاب الأعمال والفلاحين وربات البيوت والطلاب والزاهدين في العمل . لا يمثلون شيئاً في مجموع المجتمع . فكيـف اسـمح لهـم أن يحكموا حسب المذهب الشيوعي .؟ ..

قالت : هذا منافي لما يقوله الحزب يا أبا بكر ؟ ..

قال : أي حزب ؟ ..

رمقته بنظرة حادة من عينيها الغارقتين في العسل وقالت : الحزب الشيوعي يا أبا بكر .

قال : وما لي أنا بالحزب الشيوعي . أنا أعرض للحقائق .

قالت غاضبة : أخطأت أنا خطأ كبيراً في أنـي أعطيتـك طلب الانضمام إلى الحزب لتمزقه .

قال : أنا مزقت طلباً تقدم به صديق عبد المحسن الهيهي . . وأنا يا سيدتي أبو بكر عبد الجواد .

ضحكت ملء فيها وقالت : يا لك من منافق .

قام من مكتبه وتقدم منها وهو يقول : يا سيدتي الفاضـلة إذا كنت منافقاً فلـم لا تـدعيني اسـتكمل دور المنـافق . أتريدينني أن أودع السجن ؟ ..

شبت على قدميها لتطوله وقالت وهي تقبله : ما عاش من يدخلك السجن .

انتهت قبلتها العميقة وفتحت الباب وخرجت . إذن فأنـت منافق يا عزيزي صديق . لا أدري من أكون ؟ .. لقد ضعت في هذا المجتمع الذي في سنين يقهر الشيوعيين . وفي سنين أخرى يعظمهم . يبدو أن زيارة خرشـوف للسـد العـالي . جعلت الفئران المحبوسة تقفز إلى المناصب العليا . وتتبـوأ المراكز وأنا لا زلت أكتب ضد الشيوعية . ظنا مني أنني أعجب النظام . ولسوف يأتي أصحاب النظام ليطلبوا مني أن أقصف قلمي لأني أكتب هراء في نظرهم .

والآن وقد تخلصت يا صديق من نفيسة بأن وجدت لـك شقة صغيرة في المنيرة بالقرب من المجلة . ألا يجـوز أن تتخلص من اسم أبي بكر عبد الجواد ؟ .. وأعود إلى الاسـم الذي سماني به أبي وهو صديق عبد المحسن الهيهـي ؟ .. وألا يجب أن أتخلص من نازلي شفيق ؟ .. وكيف أتخلـص

منها وهي تعمل معي في نفس المجلة ؟ .. .. وألـم يحـن الوقت - وقد صار الشيوعيون أسياداً - أن أبحث عن هـذه المارقة التي هربت بأولادي .

وكأنه كان يتوقع أن تتصل به ، فلما جال بخاطره اسمها ، رن جرس الهاتف . وقال صوت المتكلم : ألو .. الأسـتاذ أبو بكر عبد الجواد لو سمحت ؟ ..

قال : نعم .. من المتكلم ؟ ..

قال صوت نسائي : رأيت صورتك في مجلة يا أستاذ أبا بكر . عرفت فيك صديق عبد المحسن الهيهي مدرس اللغـة العربية الشيوعي الملحد . .

قال غاضباً : فاتن .. لست ملحداً يا فاتن .

قالت : أنت ملحد وستون ملحداً . لقد جـاءت الشـرطة للقبض عليك لما نما إلى علمها أنك عضـو فـي الحـزب الشيوعي . وكشف لي الضابط أنك عضو في هذا الحـزب الهدام . وأنا نائمة على أذني . لقد قررت وقتها أن أختفـي من حياتك . ولكن الآن وجدت أن اظهـر إلـى النـور وإذا اقتربت مني أبلغت عنك ورفعت عليك قضية أتهمـك فيهـا

بالارتداد عن الدين وأنك غير مسلم ولا يصح أن تتزوج من مسلمة .

قال : أنت يا فاتن مشوشة الفكر .. لست ملحـداً . وأنـا مؤمن بالله ورسوله .

قالت : لما عرفت أنك تكتب باسم مستعار . اسم أبي بكر عبد الجواد . عرفت أنك تتخفى مـن جرائمـك . وقـرأت مقالاتك واكتشفت فعلاً زيف ما تكتبه . وأعلـم أن نصـف المحررين في مجلتك على شاكلتك من الشيوعيين الملحدين . وأنكم لن تتمكنوا من السيطرة على الإعلام . وسوف تصفى دولتكم عما قريب .

حاول أن يتدخل في الكلام لكن لم تكـن لتهـدأ وأخيـراً استطاع أن يقول : غلطانة يا فاتن .. أريد أن أقابلك .. أريد أن أرى أولادي .

لكنها أسرعت وقالت : أنا امرأة مسلمة لا أقبل أن أكـون زوجة ملحد . لا تحاول أن تراني . ولا تحـاول أن تـرى أولادك . وأعدك بأنهم سيكونون في أحسن حـال وسـوف أربيهم أحسن تربية .. تربية إسلامية بعيـدة عـن الأفكـار الماركسية اللينينية . يا عدو الله .

قال : أنت غلطانة ..

لم ترد عليه وقطعت الاتصال . إذن فقد حرمـت نفسـها علي . وخشيت على أولادها مني . تظن أنني ملحـد وأنـا مؤمن بالله . ولكنك انضممت إلى الحزب الشيوعي وتـؤمن بآرائه . أين هو الإيمان بآرائه ؟ .. ألا أفندها كل أسـبوع ؟ .. لكنها تدعي أنه زيف ونفاق . هل كُتـب علـي ألا أرى أولادي ؟ .. وهل أتزوج ثانية ليكون لي أولاد ؟ .. ومن من سوف أتزوج ؟ .. من نفيسة المتزوجة التي لم تسع إلى طلب الطلاق من زوجها عن طريق المحكمة ؟ .. وسألتها يومـاً فامتعضت كأنها لا تثق أنني سأتزوجها لو تم طلاقهـا ؟ .. تستمرئ أن تكون زوجة لا مطلقة . أم من نازلي المتزوجة أيضاً والتي لا تسعى - هي الأخرى - للطلاق من زوجهـا الرائد في الشرطة . أم أبحث عن محررة معي في المجلـة أتزوجها . أليس من غير المقبول أن أكـون علـى اتصـال بنازلي هذا الاتصال المشين ؟ .. لكن نـازلي تخفـف مـن البلوى التي سقطت فيها ؟ ..حرماني من الزواج . لكني امتعض كثيراً من نفسي إذ أقدم على الاقتراب منها . لقد تعمدت أن تؤخر التدريس للأولاد ساعة حتى تنصـرف

نفيسة لما لاحظت أنها تراقبها . بل جعلت نفيسة تغادر قبـل وصولي . ولعل نفيسة أرادت أن تضبطها فقررت يومـاً أن تبيت عندها غير أنها صرفتها قبل ميعادها لما اكتشفت أنهـا تتلكأ . حينما انتهي من التدريس للوالدين الذين أصبحا باهرين في اللغة العربية . تطلبني على الفور . ومديرة القصر تكون هي الأخرى انصرفت . وخالتها تكون قد غطت فـي نـوم عميق . وأنا لا أستطيع أن أرفض وإلا استطاعت بما لها من نفوذ أن تطيح بي إلى الشارع من جديد ومن المجاـة ومـن التدريس لواديها . . وأذهب معها كأني عبد من عبيدها . هي كليوباترة الملكة تدعوني إلى مخدعها .

السر الغريب الذي يحيرني لم رقت لها ؟ .. لم لا تبحـث عن آخر يحل محلي . يبدو أن الطاعة التي جبلت عليها هي التي تجعلها تستمرئ الاستمرار معي . والغريب يا صـديق أفندي أنها لا تمرض يوماً .. أو تزهد في أسـبوعاً . كـأني قطعة حلوى تأكلها ثلاثة أيام في الأسبوع .

والآن يا صديقي العزيز ماذا ستفعل ؟ .. هل تعود شريداً من جديد في مكان بعيد عـن نـازلي ونفيسـة والمجاـة أم سترضخ وتستمر حتى لا يضيع منك القرش ولا تفوتك اللذة

ولا يفوتك المستوى الذي عدت إليه ؟ .. أم تريد أن تعود إلى أيام الضياع ؟ ..

(٩)

فتح باب شقته الجديدة ، فوجدها أمامه . سأل باندهاش : كيف عرفت البيت يا سمارة ؟ . قالت ضاحكة : من يسأل لا يتوه .

ترصدته وهو يخرج من بيت مخدومتها ومشت وراءه . والمسافة لا تحتاج إلى سيارة أجرة يكتريها . تكفي التمشية ما بين جاردن سيتي والمنيرة . إن بينهما شوارع قليلة . ثم عرفت شقته بالضبط وهي لازالت تتبعه . ونزلت خائفة أن يعنفها لأنها راقبته . ثم صعدت من جديد متشجعة . مدعية أن صدمة تمر ولكن أحداً لن يموت . وطرقت الباب ففتح لها .

أدخلها إلى الحجرة التي أعدها لاستقبال الضيوف . حجرة متواضعة ذات أثاث قديم اشتراه من محل قريب بجانب مستشفى أبي الريش . وجلست وهو يسألها : هل هناك حاجة لك عندي ؟ ..

بداية لا تسر ولكنها بلعتها وقالت : أبداً .. جئت لأبحث فيما إذا كنت في حاجة إلى تنظيف الشقة أو كنسها أو مسحها . أو إذا كنت في حاجة إلى أن اطبخ لك .

قال : شكراً يا نفيسة .

غير لهجته من اللهجة الودية إلى اللهجة الجادة .

" عرفت البيت ولا سبيل إلى طردها . إنها - مهما كـان الوضع - لها أفضال علي لا تُنكر . "

قالت : لا تخجل . أنا طوع بنانك .

قال : سيكون مجهوداً عليك . الفيلا . وبيتك وبيتي أيضاً . هذا كثير .

قالت : لا تهتم . أنا جمل . ولكنك لا تلاحظ .

" ماذا تعني بكلمة جمل ولا تلاحظ . أتريد مني أن تسدي إلي أكثر من خدمة ؟ سوف تدعي البله يا صـديق . أنـت تدري ماذا تريد امرأة هجرها زوجها ولا زالت في ريعـان الشباب . لبي النداء وليكن ما يكون " .

لم يذكر لأحد أن زوجته اتصلت به . لذلك لم يفتح سيرتها مع نفيسة . عليك أن تكون سراً مغلقاً مثلما الآخـرون سـر مغلاق . إن نازلي لا تحدثه عن أسـرارها وعـن زوجهـا المنفصل . ربما لأن ليس فيه جانب مشـرق . ونفيسـة لا تحدثه عن زوجها . ربما لأنها لا تعرف شيئاً عنـه ، لـذلك فهو يلتزم الصمت مثلهما .

أراحها في ذلك اليوم بقبلة عميقة ولكنه رفض أن يزيد . حتى أنها لم تغادر الشقة ونامت معه في الفراش ولم يلمسها . وحذرها قائلاً وهو يضمها إليه : أنا أخشى أن تحملي فأنت امرأة ولود .

قالت بضعف : ربنا يستر . والتصقت به تثيره ولكنها لم ترتو . تصنع النوم وهو يفكر بالتخلص منها .

كانت تعرف طبيباً في حي السيدة زينب يجهض النسـاء الحوامل . كثيراً ما رأت فتيات في عمر الزهور يخرجن من عيادته وهي عيادة مقابلة لطبيب الأسنان الذي يحشـو لهـا أضراسها المتهالكة . كانت العيادة يملؤها الصمت الكئيـب . تدخل المرأة لا يبدو عليها الحمل . وتخرج منها وقد جـزت على أسنانها لمنع البكاء والألم . وهي تسير متراخيـة تكـاد تسقط من الإعياء . قد تسندها نسوة أخريات جئن معهـا أو تمشي على قدميها تترنح . أتريدين أن تقفي هذا الموقف يـا سمارة ؟ .. كنت أشتاق إليه منذ أن كنـت أعمـل عنـده . وهاهو الحلم لا يتحقق رغم طول العطش . ولو أنـه تحقـق جزئياً بأن ضمني إليه . في ذلك السرير الواسع كأنما تعمـد أن يشتريه ليضم اثنين . سوف ابحث في الصـيدليات عـن

دواء يحول دون الحمل ؟ .. كم يصنع الإنسان أدوية تساعد على الفساد ؟ ..

في الصباح سألته : متى آتي لك ؟ ..

قال : أنت في إجازة يوم الجمعة .. تعال يـوم الجمعـة القادم سأكون في انتظارك .

هي تعرف أن المرض الشهري لم يكن قد مضـى عليـه غير يومين وتطهرت منه ، وسمعت أن الحمل يحـدث فـي اليوم الخامس عشر ، لذلك كانت مستعدة بالأمس أن تمنحـه نفسها ولا يحدث حمل . لكن فـي الجمعـة الآتيـة سـوف تتعرض للخطر . وعلى العموم فهو لن يمسها إلا إذا اطمأن إلى أنها لا تحمل ؟ .. وإذا كان يخشى أن تحمـل فكيـف لا يخشى على نازلي ؟ .. ربما نازلي لا تحمل . وربما تتناول عقاقير تمنعها من الإنجاب . علي من الآن أن أسـعى إلـى الطلاق . وإذا وجدني غير مرتبطـة فلـن يتـردد فـي أن يتزوجني ؟ .. وما المانع أن يتزوجني . سأبقى في بيته لـن أخرج منه . وسأعيش خادماً تحت قدميه .

دخلت صيدلية في شارع القصر العيني . قبـل أن تغـذ السير إلى حي السيدة زينب . وسألت الصـيدلي : أنهكنـي الخلف يا دكتور . ألا أجد شيئاً يحول دون الحمل .

استخرج الصيدلي دواء ، وأعطاها إياه وهو يقول : خذي حبة قبل النوم يومياً إلى أن يحدث المرض الشهري فتوقفي . وعندما تتطهرين منه عودي من جديد لابتلاع حبـة واحـدة يومياً .

سألت : أليس منه ضرر ؟ ..

قال : لا ضرر منه . فقط قد يخزن المـاء فـي جسـدك فتبدين بدينة .

قالت : سمعت أن منه أضراراً أخرى .

قال : هكذا يقال . لكن لم يثبت ذلك حتى الآن .

دفعت الثمن . ومضت .

لم تشترين الدواء ؟ .. يمكن أن تحملي رغـم تعاطيـه . هكذا سمعت . وإذا حملت فسوف يضطر إلى الزواج منك . أيتزوجني وأنا في ذمة رجل آخر . يجب أولاً أن أفك رباط هذا الزواج .

في أول شارع السد ، وجدت لافتة لمحـام . إنهـا تقـرأ وتكتب . لكنها بلا شهادات . خرجت مـن السـنة الرابعـة الابتدائية لتعمل في البيوت . تعيش مـع والـدتها ووالـدها متوفي . وقبل أن تتزوج من الملعون الهارب ماتت أمهـا . لكن لم هرب الرجل ؟ .. هل لأني أعمل وهو يريد امرأة لا تعمل . لكن بعد أن طردتني فاتن كنت سوف أبقى في البيت . أمن الممكن أن تكون قد أغوته امرأة ؟ . ولكن كيـف إذن تهواه امرأة وتغريه أن يترك بيته ويحمل معه أولاده . هذا لا يعقل ؟ .. ربما المرأة عاقر لا تنجب وتريد أن تتـزوج ولا بأس أن يكون زوجها له أولاد .

صعدت وانتظرت حتى يأتي . لم لا تذهبين إلى عملك يا نفيسة فهناك أكل عيشك ؟ .. وتعالي إلى المحـامي لـيلاً . السـاعي يقـول إنـه يـأتي بعـد المحكمـة . خـلاص . انتهينا . جئت إليه ولتذهب نازلي إلـى الجحـيم . أريـد أن أنتهي من هذه المسألة المعلقة . لن يكون أمام صديق حجة في ألا يتزوجني ؟ ..

جاء رجل تخطى الخامسة والأربعـين . قـوى البنيـة . وأدخلها الساعي إليه . قال دون أن ينظر إليها : نعم . قالت

: أريد أن أطلب الطلاق من زوجي . التفت إليها فصـدمته أنوثتها وهو يسأل : لماذا ؟ .. أبعد الله الشر عنك ؟ ..

قالت : مضت الآن ثلاث سنوات هجرني فيها . وسـرق أطفالي الثلاثة مني .

اندهش وهو يسأل نفسه : أتكون هي ؟ .. ويقول منزعجاً : سرق منك أطفالك ؟ ..

قالت : نعم .. ثلاثة أولاد .

قال المحامي : غريب أمر هؤلاء الرجـال . ثـم قـال : أتعرفين أنني متزوج وليس لي ولد . وفي حاجة إلى ولد من صلبي يرثني .. يرث عني ثروتي الطائلة . ولكـن المـرأة عقيم لا تلد .. ورغم ذلك لم أطلقها .

سألت : ولم لا تتزوج .. ألست مسلما ؟ ..

قال : نعم .. أنا مسلم . ولكن لا أريد أن أطلقها لأنها لـم تجن علي في شيء . وإذا ألقيت بها خـارج بيتـي فسـوف تتضور جوعاً لأنها بلا مورد ولا شهادات . ولا توجد امرأة تقبل أن تتزوجني على ضرة .

كادت تقول : " أنا أقبل " . لكنها تراجعت . لم يعد فـي هذه الدنيا شيء اسمه الحب . إنما الأمر مصلحة فقط .

مصلحتك أن تتزوج امرأة ولود . ومصلحتي أن أتزوج رجلاً ثرياً يقيني من العوز . وصديق عبد المحسن يا نفيسة فليذهب إلى الجحيم . أحببته دون جدوى . "

قال المحامي : مادام هجرك كل هذه السنين فأتيني بوثيقة الزواج . وجهزي شاهدين . وسوف أرفع لك قضية .. تنالين بها حكم التطليق على الفور وتكونين حرة .

سألت : وكم هي أتعابك ؟ ..

قال : لا شيء .

قالت نفيسة : هذا كثير . أنا لا أقبل ذلك .

قال الرجل : على العموم نتحاسب فيما بعد . هل تغديت ؟ ..

سألت مستغربة : ألن تذهب إلى بيتك ؟ ..

قال : لا .. بيتي في مصر الجديدة . وحتى أذهب وأعود تكون عظامي قد تكسرت من المواصلات .

سألت : تقول إنك ثري فلم لا تشتري سيارة ؟ ..

قال : لا اشتريها لأني سأعاني مثلما أعاني بالمواصـلات العادية والطرق وزحامها وانتظار الإشارات . والإشـارات .. والسير البطيء . عذاب في السيارة الخاصـة . ونفـس

العذاب في المواصلات العادية . فلم أرهق جيبـي بشـراء بنزين وزيوت وإصلاح سيارات واسـتخراج رخصـة لـي وللسيارة .

قالت متناسية ما يقـول : سـمعت أن الحكومـة سـوف ترصف طريقاً من جبل المقطم إلى مصر الجديدة .. سـوف يسهل عليك المسافة .

قال : حلني .

نهضت وقالت : أستأذن .

أمسك يدها الصغيرة ووضعها في يده الكبيرة كأنما يبتلعها . وقال وهو يشعر بخشونة كفها : لا بد أن تتغدي معي .

(١٠)

استغرب صديق أن تذهب نفيسة ولا تعود إليه كما وعدته . وعدت أن تنظف له الشقة مرة من كل أسبوع . وتطبخ له ثلاث أكلات يأكلها في الأسبوع . غير أنها ذهبت ولم تأت .

قارن بين جسدها غير المعطر وجسد نـازلي الفـواح .: فكأنه يقارن بين الديمقراطية والارستقراطية . أو بين طبقات العمال وطبقات أصحاب الأعمال . وحاول أن يسأل الوادين عنها ، وتردد كثيراً ثم تشجع وسأل ، فأجابا بأنها لم تعد تأتي .

فكر أن يذهب إليها في شقتها ، غير أنه عـدل حتـى لا تتخذ من ذلك ذريعة وتطالبه بالارتباط لأنه مهتم بها ، فمادام هناك سؤال وبحث عنها فذلك معناه اشتياق إليها ولا يـروي الشوق غير الزواج . أي مادام يسأل عنهـا فهـو يحبهـا ، ومادام يحبها فلا يكون أمامه إلا الزواج منها . وكيف يسمح لنفسه أن يتزوجها وراتبه لا يصلح أن يفتح بيتاً . وإذا فتح بيتاً فيكفي أنه يعيش شخص واحد فيه بمفرده . وإذا دخلـت نفيسة معه فسوف تكون كالأرنبة مثلها مثل فاتن . لكن فاتن كانت تعرف أن مصدر المال لديها وفير فلم يكن يهمهـا أن

تنجب . أما نفيسة فلن تعمل لذلك سـيكون مصـدر المـال ناضب لديها ، فليس من المعقول أن تعمل زوجـة صـحفي خادمة . وهو يشق طريقه وسط الحياة الصعبة فكيف سوف يكفيها ؟ ..

سأل نازلي يوماً : هل طردت نفيسة ؟ ..

قالت : أبداً . هي التي انقطعت فجأة عن العمل .

ولم يسأل من جديد ، حتى لا تعتقد نازلي أن بينهما علاقة ما .

بعد مرور ستة أشهر ، كان يقوم بالتـدريس للوالـدين ، ونازلي تراقبهما من بعيد وهي جالسة فـي بهـو قصـرها المنيف ، حينما فتحت الخادم الجديدة باب القصـر ، لتـدخل نفيسة عليهم . وقالت : مساء الخير .

صاحت نازلي : نفيسة .. أين أنت يا بنت ؟ ..

قالت وهي تلوح بيدها بدبلة في إصبعها : تزوجت !! ..

اندهش صديق وتساءل بينه وبين نفسه : ولم كانـت إذن تطاردني ؟ ..

ثم قالت : تزوجت المحامي الذي طلقني من زوجي ! ..

قالت نازلي : مبروك .. يا بنت .

استاءت نفيسة من كلمة : بنت . لكنها تحملت . جـاءت فقط لتقول لنازلي أنها لم تعد خادمة . وأنها سيدة بيت الآن . وأن الجنين يلعب في رحمها . وأن لا أهمية للأستاذ صـديق في حياتها . فليسمع الحاضر ويبلغ الغائب أنها انتقلـت مـن طبقة العمال إلى طبقة أصحاب الأعمال بلغة الاشتراكيين .

أنت محظوظة يا نفيسة . بعد سنوات طويلة من المحـن تلوح لك الفرصة الذهبية ولا تفرطين فيها . من كان يظن أن المحامي في حاجة إلى امرأة ولود . ومن كـان يظـن أنـه بمجرد أن يسمع اسم زوجي يتشبث بأن يرفع دعوى للتطليق . ثم يأمرني ألا أعمل حتى أحصل على الطلاق وهو متكفل بي . ثم يسأل ما إذا كنت مستعدة أن أتزوجه بعـد طلاقـي بشرط ألا يطلق امرأته القديمة . أوافق . ثم تتضح المفاجـأة الكبرى بعد الزواج أنني متزوجة من عديل زوجي أو طليقي . أخت زوجته هي قرينة طليقي . كان قد مات زوجها دون أن تنجب . وكان غنياً ولا تريد أن تفرط في ثروته فقـررت الاستيلاء عليها فقصدت المحامي زوج أختها حتـى يتخـذ الإجراءات لتتملك كل الثروة . وبينما يعدان الخطة معا فـي

مكتبه بالسيدة زينب قامت بإصلاح سيارتها في الورشة التي يعمل بها محمود زوجي أو طليقي - وكانت الورشة قريبـة من مكتب المحامي - وتعرفت هناك إلى محمـود زوجـي الملعون أو طليقي المأفون . والد أولادي الذين سرقهم مني . شاغلته المرأة التي لا تزال تعشق الرجال ، وطمعتـه فـي نفسها وثروتها . وقبلت أن تتزوجه بشرط أن يعيش في كنفها أولاده . ربما كانت تعشق الأولاد ولم تنجب واحداً ولا تنجب . وتزوج المرأة الثرية العاقر وجعل أولادي أولادها . هكـذا سرق أولادي وهكذا هجرني . وأقامت له ورشة خاصة هـو صاحبها في مصر الجديدة حيث تسكن أختها العاقر - هـي الأخرى - زوجة المحامي . من يصدق أن أقع على مكتـب ذلك المحامي . ويجد في ضالته .

سألني : ما اسم زوجك ؟ ..

قلت : محمود برعي الفهد .

نهض واقفاً وقال على الفور : ميكانيكي السيارات .

قلت : نعم .. هو . كيف عرفت ؟ ..

قال : كانت له ورشة بالقرب منا .

قلت : نعم .

قال : أنا مستعد للسعي في طلاقك منذ الآن .

لم تكن تعرف الحقيقة . والمحامي يعرف الحقيقة .
تصورت أن المحامي يحقد على زوجها لأنه متحفـز لأن يطلقها منه لأنه اتلف له سيارة أو تشاجر معه . ولم تعـرف أنه زوج أخت المرأة التي تزوجها محمود إلا فيما بعد .
كان يذم في زوجها ويجد أنها سقطة منها أن تتزوج مـن ميكانيكي سيارات . ليس بعدها سقطة . وأدعى أنه يحاول أن يستقي ويتحرى عن ذلك المحمود . وفشل في معرفة عنوانه لأنه ترك الورشة وربما عاد إلى مسقط رأسه في الأرياف . ثم رفع القضية و استمر في إجراءاتها . وأخذ منهـا وعـداً بالزواج حينما تطلق وتستوفي شروط العدة ، فوعدته .
المحامي كان يعرف مقر زوجها الجديد . ويعـرف أنـه سرق أولادها ليبقوا في كنف أخت زوجته . ترك هذه المرأة الولود ليتزوج من المرأة الثرية . وهي التي سوف تجلب له ورثة لثروته الكبيرة التي جمعها بعرق جبينه . لكن أليس من العار أن يتزوج من مدبرة منزل أو بـالأحرى خادمـاً ؟ .. ومن سيعرف ؟ .. إن الزواج لدى المأذون حقاً . لكن أحـداً

من المعارف لن يعرف أنه متزوج من نفيسة الخادم سابقاً . حتى الشاهدان لن يعرفا إلا أنها نفيسة عبد الموجـود عبـد التواب . ولم يصرح لها أنه يحقد على زوجها لأنه اقتـنص المرأة التي أحبها . ولم يقل لها إن المرأة خذلته لأنـه كـان محامياً فقيراً وفضلت عليه الرجل الذي يملك أكثر . وتزوج أختها حتى يكون قريباً منها . ولجأت إليه ليضم ثروة زوجها المتوفى لها ثم خذلته للمرة الثانيـة وتزوجـت مـن ذلـك الميكانيكي . وكان مستعداً أن يتزوجها ويطلق أختها .

كانت نفيسة تتساءل دائماً : كيف يقبل المحامي الـزواج منها ويحط من مركزه الاجتماعي ؟ .. لكنهـا أيقنـت أنـه تزوجها لأنها امرأة ولود . فكم كانت نشوته وهي تخبره أنها حملت منه . لقد قبلت الزواج منه حتى تنقذ نفسها من الخدمة في البيوت وترتفع في مستواها الاجتماعي رغم أنه لم يـذع خبر زواجه منها . ولكن من المعروف أنه زوجهـا لسـكان العمارة على الأقل وأنه يستأجر لها هذه الشقة . حقاً يا نفيسة لا زلت تحتفظين بشقتك القديمة وتدفعين إيجارهـا غيـر أن

جناب المحامي لا يعرف . وهو يدللك ويشتري لـك أفخـر الثياب وينتظر ولي عهده على أحر من الجمر .

تذكرت نظرات الدهشة في عين نازلي شفيق وهي تـرى أمامها سيدة مجتمع وليست خادم الأسـرة . لكـن نظـرات صديق عبد المحسن كانت نظرات تدل على أن ثقلاً انـزاح عن صدره . ليس مهماً .. ليس مهماً . لو كنت تزوجت من صديق لكنت الآن تشعرين أنك أقل منـه مركـزاً . مثلمـا تشعرين وأنت مع المحامي . مع الفرق أنني كنت فعلاً خادماً لدى عائلته أما المحامي فلم أعمل عنده . بل أعمل في بيتنا .

(١١)

يسأل ثروت المكباتي المحامي نفسه دائماً : كيف لمحـام شهير ثري يتزوج من خادم ؟ .. لا يجيب على نفسه ، إنمـا يتذكر أنه يحب أخت زوجته حباً جماً ، غير أنهـا رفضـته حيث كان فقيراً ، وهي تحب المال بشغف . لم يكـن وقتهـا ثرياً . وكانت تطمع في إنسان ثري . ولما زحف إليه الثراء ، كانت العصفورة قد تزوجت رجلاً كبيراً في السن ، ولكنه يلعب بالمال لعباً . ولفظت العصفورة المحامي من أجل ذلك تزوج من أختها حتى يكون قريباً منها . ارتبط بسـارة مـن أجل أن يكون قريباً من هاجر . رغم أنها لا تبادله الحـب . وحاولت أن تتباعد عن أختها سارة حتـى لا تـرى ثـروت المكباتي الذي يطاردها رغم أنه تزوج من أختها . ليس فـي وجهه دم . ولا يعرف الحياء . ذلك المحامي الشهير لا يزال يغازلها حتى وهي متزوجة . ويعلن حبه لها وهي لا ترضى عن ذلك الحال لأن أمره قد يكتشف ويطلقها زوجها الثري . ماذا يحدث لو ضبطه يغازلها . غير أنها لجأت إليه من جديد ، حينما مات زوجها في حادثة . ولم يكن له قريب إلا ابـن خال . أراد أن يرث التركـة ولا يتـرك لهـا إلا ربعهـا ،

فتصدى له ثروت المكباتي . واتفق معه على أن يرث نصف التركة فقط . والنصف الآخر يكون لهـاجر . وكـان قلـب ثروت قد بدأ يتفتح من جديد لهاجر . غير أنها ذكرتـه أنـه زوج أختها . فقال لها : الشرع يبيح أن أتزوجـك بعـد أن أطلق أختك .

غير أن هاجر كانت قد أحبت الميكانيكي محمود برعـي الفهد . وعرفت أنه متزوج وله أولاد ، لذلك زاد إصـرارها على الاقتران به . لأنه قد يجعلها شجرة مثمرة فتنجـب وإذا لم تنجب فأولاده هم أولادها . تعرف أنها عاقر مثل أختهـا لكن راودها الأمل أن تنجب من محمود برعي الفهد ، ولـو أن الأمل خاب ومات في المهد . سرقته من زوجته وسرقت أولاده أيضاً ليعيشوا فـي كنفهـا . وطمـع محمـود فـي ثروتها ، لا يريد أن يقتنصها ولكن لا بأس أن يتمتـع هـو وأولاده بها معها . ولم تبخل هاجر عليه إنما أغدقت بحرص واشترت له ورشة لإصلاح السيارات في مصر الجديدة لتدر عليه مالاً فلا ينظر إلى ثروتها . وخطف أولاده وهرب بهم إلى شقتها التي آلت إليها من ميراث زوجها . لقد اختصـت بالشقة واختص ابن خال زوجها ببعض العقارات . وتغاضى

عن الأموال السائلة المكدسة في خزانة ابن خاله   السرية ، أو لعله لم يعرف عنها شيئاً . وقد استولت عليهـا هـاجر وخبأتها في خزانة أخرى .

ولما قابل ثروت المكبـاتي نفيسـة ، ووجـدها تطالبـه بالتطليق من زوجها الذي لا تعرف له مكاناً ، سعى إلى رفع دعوى التطليق لما عرف اسم زوجها محمود برعي الفهـد . زوج أخت زوجته . ووجد أن هذه المرأة مناسبة تماماً . فهي ولود وأنجبت ثلاثة من زوجها . وطليقها خطف حبيبة عمره . لكنها لا تحبك .!! .. فانتقاماً من زوجها - كما تصـور - سوف يتزوجها بعد طلاقها ، فمثلما سرق الحبيبة يسرق هو الزوجة السابقة . غير أنه لم يعلنها أنه يعرف زوجها وأنـه حاول أن يتزوج من امرأة كان يعشقها غير أنها رفضـته ، لأنها كانت تسعى وراء المال . والآن تسـعى وراء تربيـة أولادها . وإذا فشلت في الإنجاب فلديها أبناء زوجها . وقـد ثبت أنها فشلت لأن الزواج استمر أكثر من ثلاث سنوات ولم يثمر . لكن بعد الزواج روى لنفيسة أنه يعرف مكان زوجها وأنه متزوج بأخت زوجته . ولكن لا سبيل أن تضم أولادها إليها لأنهم في رعاية أبيهم وهي - أي نفيسة - تزوجـت .

لكن من الممكن - بالسياسة - أن تتصل بـالأولاد ، لكـن اتصالها بهم سوف تعرفه هاجر أخت زوجته . وسوف تنقل خبر زواجه من نفيسة إلى أختها سارة . وسوف تطعنها في الصميم لأنه يعرف أن زوجته غادرة وقادرة وهو لا يريد أن يفسد حياته الزوجية الجديدة . لقد تزوج نفيسة على أساس أن تلد له الولد ولا تكشف زواجها لزوجته . وقد وافقت نفيسـة فليس عليها إلا أن تتقبل الأمر الواقع . وتعـيش فـي حيـاة رغدة وتنسى أن لها أولاداً . ولتحمد الله أنه رفعها من حيـاة الضنك إلى حياة النعيم .

رضيت نفيسة بما لحقها من قسمة . وتزوجـت ثـروت المكباتي وانتقلت من شقتها - التي ظلت تحتفظ بها - إلـى شقة جديدة اشتراها ثروت المكباتي وأسكنها إياها . ولو أنها كانت تظن أنه استأجرها . وشعرت أن بطنها تتكور وأدركت أنها حملت .

كان هناك ما يضايقها . وهو ألا تعـرف نـازلي شـفيق وصديق عبد المحسن ما آلت إليه حياتها . كانـت تريـد أن يعرفا ما وصلت إليه من عز . غير أنها شعرت لما التقـت بهما أن نازلي شفيق لا تزال تعاملها كخادمة حتى أنهـا لـم

تسمح لها أن تجلس . وكانت طول الوقـت واقفـة ونـازلي جالسة في عظمة . وشعرت أيضاً أن صـديقاً لا يعنيـه إن تزوجت وإن لم تتزوج . وما يبدو أنه أخذها في أحضانه في ليلة اللقاء الأخيرة إلا ترضية لها . ولكن لا يعنيه أن يأخذها إلى الأبد في حضنه .

خرجت وهي تأسف أنها ظهرت . وصـممت ألا تـرى نازلي أو تذهب إليها أو ترى صديقاً أو تذهب إليه . وأنهـا ستبقى في منزلها . ترضى بذلك المحامي الذي يأتي كل يوم يتغدى بدلاً من أن يتغدى في السوق كما كانت عادته . لكنه ينام ليلاً لدى زوجته الأولى التـي لا تعـرف أنـه ارتـبط بأخرى.

(١٢)

استمر صديق عبد المحسن يكتب في المجلـة ، ورئـيس تحريرها يوافقه على ما يكتب ، وبعض زملائه يرفضون ما يكتب زميلهم ومنهم نازلي . بل كان البعض يغمز ويلمح أن نازلي هي التي جعلت ذلك الجرذ يتسلل إلى العمل في المجلة . لا يفهمون ما إذا كان مع الشيوعية - مذهبهم - أو ضدها . وأدركوا في خلاصة نهائية أنه يلعب على الحبال ولا يؤمن بشيء . صحفي بهلوان ليس إلا .

ولم ينقطع صديق عبد المحسن عن التدريس لولدي نازلي ، رغم أنها كانت تنتقد مقالاته . وتقول له إنه يخرج عن خط الحزب . فلا يقول شيئاً ولا يرد . وحينما ينتهي من الدرس ، ينصرف الولدان إلى حجرتهما ، وتأخذه نازلي من يده إلى حجرتها ، ويتسلل بعد قضاء وطره خارج الفيلا ، ليعود إلى شقته الصغيرة ، ونازلي تتقلب في سريرها تحاول أن تتذكر متعتهما معاً .

وفي ذات يوم ، بينما يخرج صديق عبد المحسـن مـن حجرة نازلي ، وهي تتقلب في سريرها متمتعة ، تفاجئه خالة نازلي في البهو ، وتقول غاضبة : أنت مدرس العربي ؟ ..

يقول مرتبكاً : نعم .

تسأله : وهل تعرف في الدين ؟ ..

يقول : القرآن الكريم نزل باللغة العربية .

تقول : وهل من الدين أن تدخل حجرة امـرأة متزوجـة وتختلي بها ؟ ..

يطأطئ رأسه خجلاً ويقول : مضطر .. حتى أعيش .

تسأل في استغراب : كيف تكون مضطراً ؟ ..

يقول في تخاذل : هي ولي نعمتي . بفضلها أعمـل فـي المجلة .. ولا أستطيع أن أرفض لها طلباً .

تقول في حدة وتحـاول أن تهمـس : إذن اعمـل هـذه القاذورات في أي مكان آخر .. وليس في هذا البيـت الـذي تعلم فيه الدين واللغة .

مشى متخاذلاً . هل يمتنع عن الحضور أم يصارح نازلي في المجلة بما حدث ؟ .. وإذا صارحها فقد تطـرد خالتهـا المسكينة من القصر . ويبدو أنها تحتاج إلي البقاء في دارها . لكن إذا كانت تعرف أن وضـعها ضـعيف . ويمكـن أن تطردها نازلي ولا يمكنها أن تقف في وجـه بنـت أختهـا وطلبها للمتعة ألا تنكمش ولا تغامر . لكن يبدو أنها تتمنى أن

تكون رجلاً ولا تكن مخاتلاً وأن تكون على خلق فلا تفشـي نصيحتها . أو يبدو أنها متمكنة من بنت خالتها فلا أهمية إذا عرفت أو لم تعرف . شيء محير فعلاً .

وبعد يومين جاء صديق للتدريس للوالـدين ، تقـدما فـي دروسهما العربية بدرجة جيدة ، وهو منبسط لأنـه حـول خاملين إلى نشيطين ، وهما يعرفان أن مجرد أن ينتهيا مـن الدرس يذهبان إلى حجرتهما . ويصعد أحياناً بعد ذلك إلـى حجرة نازلي التي تكون منتظرة إياه في شـوق ، أو تكـون منتظرة إياه لتشده وقد تلألأت عيناها فرحاً بقدومه .

لم تكن في ذلك اليوم تنتظره على أمل أن يصعد إليهـا ، وكان يشعر أن عيني الخالة تترصده . شعر أنه أفلـت مـن قبضة نازلي في هذه المرة ، كما يفلت الجرذ مـن القـط . وهذه المرة يفلت الفأر من القطة .

دخلت عليه في اليوم التالي حجرة مكتبه الصغيرة ، وهي تسأله : لم لم تصعد بالأمس . كنت انتظرك ؟ ..

قال : قابلتني المرة الماضية خالتك ورمقتني بنظرة ثاقبة . ذهبت وأنا أسير مضطرباً . وهي ترمقني بنظراتها النارية .

قالت : خالتي ليست وصية علي . وهي تعيش معي فضلاً مني . لا تهتم بها .

قال : إذا كنت تريدين أن نلتقي فتعالي إلى شقتي . هـي قريبة من بيتك في المنيرة وأنت في جاردن سيتي . مسـافة شارعين لا أكثر .

جاءت إلى شقته . غير أنها امتعضت لما وجدت الأثـاث ليس فاخراً . والشقة ضيقة . بادرته بكبريـاء : مـا هـذه المزبلة التي تعيش فيها ؟ ..

قال : أنا أسستها من العدم . شهراً بعـد آخـر .. حتـى أصبح بها أثاث .

قالت : أتظن أن ذلك أثاث ؟ ..

قال : ليس مثل أساس قصرك على ما أعتقد . ولاحظـي أنني لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب .

قالت : المرة القادمة .. تصعد إلى حجرتـي . ولا تهـتم بكلام خالتي إذا كانت قد كلمتك .

غير أنه لم يصعد . بل لم يذهب . كان متأسفاً لأنـه لـن يواصل التدريس للوادين بعد أن تقدما لكنه يريد أن يفلت من عيني الخالة المعاتبة . وقبضة نازلي المرهقة .

غضبت نازلي من تصرف صديق ، وحاولت أن تنـاقش خالتها في تصرفها معه ، غير أنها أحجمت خشية أن يحدث بينهما شقاق تكون عاقبته وخيمة ، فقد تطردها من البيـت ، أو تتهجم على خالتها .. وفي الختام كارثة لا تقبل أن تحدث .

دخلت عليه حجرته الضيقة في المجلة ، وسألت : لم تأت بالأمس لعل المانع خير ؟ ..

قال وهو يغمض عينيه : خير الله ما أجعله خيراً . كأنـك ملكتني يا أستاذة نازلي .

نظرت إليه شزراً وقالت : لا أهمية .. لا تأت بعد الآن .

صفقت باب الحجرة وراءها وهي تخرج منفعلة . وصديق مجمد في مكانه وهو يتساءل : هل انتهى عهد نازلي ؟ ..

(١٣)

لم يكن ينتظر أن يصل البطش إلى هذه الدرجة . دخـل عليه ضابط وجنديان في مكتبه الصغير في المجلة ، وسـأله الضابط ، وهو جالس إلى مكتبه :

- هل أنت أبو بكر عبد الجواد ؟ ..

قال : نعم .. أنا أبو بكر عبد الجواد .

سأل الضابط : هل هو اسمك الحقيقي ؟ ..

ارتبك صديق ، وقال : ذلك اسم فني .. كما يقال .

قال الضابط : وما هو اسمك الحقيقي ؟ ..

قال : أنا صديق عبد المحسن الهيهي .

سأل الضابط : هل تنتمي إلى الحزب الشيوعي ؟ ..

قال صديق : أنا لا أنتمي إلى أحد . لقد اخترت اسم أبـي بكر عبد الجواد كاسم جذاب ليس إلا .

قال الضابط : أنت يا سيد هارب من العدالة . ومطلـوب القبض عليك .

في المباحث العامة ، بدأوا يحققون معه . وضابط يـدخل فيسأل أسئلة ، ويخرج ويعود آخر يسأل نفس الأسئلة كأنمـا

يجرون له امتحانات . ويختبرون مـدى صـدق إجاباتـه . ولعلهم يقارنون بين الإجابات السابقة والإجابات اللاحقـة . وهو في كل مرة يقول نفس ما كان يقوله من قبـل . يـدافع عن نفسه في انتحال اسم أبو بكر عبد الجواد على اعتبار أنه اسم صحفي رنان . واسمه الحقيقي سماه له والده - رحمـه الله - وهو صديق عبد المحسن الهيهي ولم يكن فيه رنـين . وأنه لا ينتمي إلى الشيوعيين . بل هو يكتب ضد الشـيوعية في مجلته . وكتاباته فيها شاهدة على ذلك .

أدرك - وهو في الزنزانة مع آخرين - أنها وشاية مـن نازلي شفيق ، فهي الوحيدة التي تعرف أنه كان منتمياً إلـى الحزب الشيوعي ، لأنها أمينة التنظـيم المسـيطرة . وقـد احتضنته لما خضع لشهواتها فلما حاول أن يـتخلص منهـا أوشت به امبراطورة الصحافة المتخفية . .. كيف يفلت منها ؟ .. لقد تعب من الزنا وحركت فيه خالتها نخوة لم تكن فيـه من قبل .

في الزنزانة تعرف إلى صحفي اسمه نـادر المنـوفي . عرفه بنفسه أنه صديق عبد المحسن الهيهي الشهير بأبي بكر

عبد الجواد . قال : إذن فنحن الاثنين من القرى المصـرية . قال صديق : إن الهيهي لقب فقط ، ولو أنني لم أطأ بقـدمي ههيا هذه .

قال : أما أنا فقد عشت طفولتي وصـباي فـي أشـمون جريس في المنوفية . لكن شبابي عشته في الإسكندرية ولـو أنني نزحت بعد ذلك إلى القاهرة . ثم سأل : : ما هي تهمتك ؟ .. قال : لا أعرف إلا أنني أكتب في مجلتي باسم أبي بكر عبد الجواد واسمي كما قلت لك . ويتهمـونني بالشـيوعية . قال نادر مستغرباً : ولكنك تكتب فـي الإسـلاميات وتنتقـد الشيوعية . لقد قرأت لك .

أردف نادر : أنا أيضاً يتهمونني بالانتماء إلـى الأخـوان المسلمين .

ووضع يده في يده وقال : عاهدني إذا انتهت هذه الغمـة نرحل عن هذه البلاد .

ضغط على يده وقال : وأين سنذهب ؟ ..

قال : فرنسا. هناك أعرف رئيس تحرير مجلـة مسـتقلة تصدر باللغة العربية . نكتب فيها . ورئيس تحريرها صديقي .

همس صديق لنفسه : في هذه الحالة لن تطاردني السـيدة نازلي شفيق . وأكون قد أفلت من غـدرها بجلـدي . كـأن الإنسان ليس له حرية أن يتصل أو لا يتصل فتوشي بـه . لكن لقد جعلتني أمزق طلب العضوية من حزبها الشيوعي . أتراها تحتفظ بصورة العضوية وأرسلتها إلى الشرطة لكـنهم لم يبرزوا لي هذه الصورة . هل لديها النفوذ أن تقـول لهـم اقبضوا عليه فيتولون القبض علي . من أين تستمد نفوذها ؟ .. وكيف أعرف ما إذا كان لها نفوذ أم أن الوشاية جـاءت من الآخرين ؟ ..

(١٤)

لم يكن يظن أن ساحته سوف تُبرأ . وأنه سوف يحصـل على تأشيرة الخروج من بر مصر إلـى فرنسـا . بـل أن يحصل على تأشيرة الدخول إلى فرنسا نفسها للسياحة . وأن نادراً المنوفي سوف يكون رفيقه في الطائرة . ولـولا هـذه الجنيهات التي أدخرها والتي أخفاها في شقته لما تمكن مـن القيام بالرحلة . والغريب أن أحداً لم يفتش شقته من الشرطة حتى يستوثقوا من خلو بيته من الكتب والمواثيق التي يمكـن أن تدينه كأنه إنسان بلا مأوى . ولو أن بيته كان خالياً مـن مثل هذه المتفجرات . ورئيس تحرير المجلة الذي كان يكـن له كل مودة . رفض إعادته إلى المجلـة دون أي مبـرر . وحاول أن يقابل نازلي لعلها تشفع له وليتودد لها من جديـد غير أنه وجدها في إجازة . ولم يجد في قلبـه الجسـارة أن يزورها في قصرها . أصبح ذلك القصر محرمـاً عليـه أو حرمه هو على نفسه . ولما صدرت التأشيرتان ، باع كل ما يملك من أثاث في الشقة ، وأفرغ الشقة من محتوياتها ، وسلم مفتاح الشقة لمالك العمارة ، وهو في طريقه إلـى الخـارج حاملاً حقيبة ملابسه بعد أن سلم المفتاح ، وجد صـفاً مـن

الناس - ربما - يسعون إلى استئجار الشقة .. فمن سـوف يدفع خلواً أعلى من الآخر . لقد أستأجر الشقة في زمن غير معروف الخلو فيه ، أما الآن فهو ظاهرة عالمية ذلك الخلو .

في الحي اللاتيني استطاع - هو ونـادر - أن يسـتأجرا غرفة في بنسيون للعزاب .

وفي اليوم التالي ذهبا لمقابلة صديق نادر الصحفي رئيس تحرير المجلة الأسبوعية . استقبلهما مازن عويس بالأحضان كأنه يعرفهما منذ سنوات . وقال لهما : أهلاً بالمهـاجرين . وبادرهما قائلاً : خط المجلة خط ثوري . يقـف ضـد مـن ينتهكون حقوق وحريات الإنسان في أي مكان وليس بلـدنا فحسب .

ثم قال : لا تعتقدا أنني لا أعرف عنكما شيئاً . أنا أعرف كل شيء . صديق شيوعي ونادر أخوان مسلمين . ولكـن لا أعرف كيف اجتمعتما معاً . ربما يكون المعتقل هـو الـذي جمعكما .

اعترض صديق وقال : أنا اعتقلت بسبب وشاية مجهولـة الهوية لم يصرح المسئولون باسم مقدمها تتهمني باتخاذ اسم

غير اسمي لأخفي أنني شيوعي . وهو أيضاً أُتهم بأنه منضم لجماعة غير مشروعة ويعمل في صفوفها .

قاطعه رئيس التحرير بحدة مغلفاً كلامه بغلاف من الود : المهم .. أنكما معنا .

لما استقر بصديق المقام وتحول من سائح إلى مقيم رسمياً . كان يسرح ويحلل ويبحث عن أسباب وضـعه الـراهن . ربما ظنت نازلي أن في إخفاء اسمك الأصلي جريمة ، فلمـا لم تتردد عليها وشت بك وظنت أنهم سوف يحبسونك . لذلك غلفت بلاغها بانتسابك إلى الشيوعية ، وظنت أن في إخفـاء الاسم الأصلي دليل على أنك تهرب من التهمة . لكـن لـم تعرف أن الشرطة اقتنعت أن الاسم الفني يمكن أن يختلـف عن الاسم الحقيقي أو أن اسم الشهرة يمكن خلقه أما الاسـم الحقيقي فلا إنكار له لكنه غير معروف . وكـان يكفـي أن أقسم أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حتى تسقط تهمة الشيوعية عني . خاصة أن الأمر لا يمثل جريمة مادام أنني لم انخرط في اتفاق جنائي . ولم تظهر لي بطاقـة عضوية في الحزب المأسوف على أعماله . ولم تجد الشرطة

ما تتهمني به فأطلقت سراحي . أما نادر فقد ظهر أنه بالفعل متدين ، ولكنه ليس من الأخوان المسلمين . (ولو أنه يبـدو سراً عضواً ضالعاً في الجماعة) .

المهم أن الدرس الذي يجب أن يستوعبه الآن . أن المرأة لا أمان لها . وأن غدر النساء يطوله ولو أنه ينجو منه . لكن كيف توصم كل النساء بالغدر مع أن نفيسة أنقذتك من حيـاة التشرد وسعت لدى نازلي أن تعمل ولو أنك أدرت لها ظهرك . أنت في هذه الحالة الغادر . كان يجب الابتعاد عنها لأنهـا امرأة متزوجة . ولا يجوز أن أقربها . ألم تكـن نـازلي - هي الأخرى - امرأة متزوجة ولو أن زوجها هجرها أو هي هجرته .. طردته ، فكيف قربتها وتباعدت عن نفيسـة ؟ .. إنها لا تفترق عنها فهي الأخرى هجرها زوجها . يا صديق يا عزيزي أنت فضلت الطبقة الأرستقراطية علـى الطبقـة الدنيا . لم أعد الآن أتطلع إلى أي طبقة . عهد آخـذه علـى نفسي أن امتنع عن العلاقات النسائية . لا أنـال مـنهن إلا الطعنات .. الأولى جعلت الطريق ممهداً أمـامي واشـترت عش الزوجية وعاشت في أحضاني متيمة رغم قلة مالي ثـم طعنتني بأن تركتني للشارع . والثانية فتحت أمامي سبل

الرزق . تدريس لواديها . ومقالات في مجلة تسيطر علـى رئيس تحريرها . ثم غدرت بي لما أردت أن أكون فاضلاً . الآن سوف أتفرغ للكتابة فقط ولن أنظر إلى النساء بعد الآن . ليذهبن إلى الجحيم .

(١٥)

الوضع غريب في المجلة . الكادر الإداري من الفرنسيين الذين يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولا يعرفون شيئاً فـي اللغـة العربية . والكادر الفني من العرب الذين لا يجيـدون اللغـة الفرنسية . وهم قادمون من شتى البلدان العربية .

كانت مديرة الحسابات سيلفيا فرنسية ، جذورها فرنسية ، غير أنها تحب العرب . جذبته في البداية ، غير أنـه وجـد نادراً غارقاً في حبها ، فامتنع عن الظهور أمامها حتى يترك لزميله غزو قلبها ، ويأخذ فرصته في التعبير عن إعجابه بها . ولم يكن يفكر في النساء ، ولكن كان يتساءل : هل سيظل راهباً بقية العمر ؟ ..

استغرب أن ذلك المنتمي إلى حزب الأخـوان المسـلمين يتصرف كمراهق للفت نظر سيلفيا إليه .

سألته يوما وهو يصرف راتبه ، ويتلكأ في الوقوف أمامها : أليس لك عمل ؟ .. قال : أنا أحاول أن أتكلم معك ليكـون هناك استعمال للغة الفرنسية بصفة عملية . ضحكت لأنه بدلاً من أن يعبر بكلمة واحدة فرنسية أورد تلك الجملة الطويلة . كان يكفي أن يقول لها : أريد أن استعمل اللغـة الفرنسـية

عملياً . وسألها نادر يوماً أن تتغدى معه فرفضت ، غير أن اليأس لم يدب في قلبه .

سألت صديق يوماً : أين تقضي أوقات فراغك ؟ .. قـال صديق : أتعلم الفرنسية . أقرأ كتباً . أتعمق فـي البحـوث والدراسات حتى تكون مقالاتي دسمة وجديدة .

قالت : ستعيش في باريس دون أن تراها .

سألها : وماذا أفعل ؟ ..

قالت : تعال معي أجعلك تشاهد معالم باريس .

سألها : ألست متزوجة ؟ ..

قالت : أنا من المضربات عن الزواج .

قال هاتفاً : مثلي . ثم سألها : هل تزوجت من قبل ؟ ..

قالت : لا .. لم أتزوج .

قال كاذباً : مثلي .

لم يكن أحد يعرف أنه متزوج وله أربعة أولاد . وذكر في جواز سفره أنه أعزب . ولا حتى نادر زميله كان يعـرف . لم يكشف له عن سره وهما معتقلان رهن التحقيق . . وقـدم معه وهو يعرف أنه أعزب أو أن لديه أربعة أولاد . ربمـا أصبح الآن مطلقاً . ربما رفعت زوجته دعوى تطلب الطلاق

منه مثلما فعلت نفيسة مع زوجها الغائب . ولو عرفت فـاتن نفيسة لدلتها على المحامي الذي رفع لها الدعوى لتتحرر من الرابطة مع زوجها .

قال لها في خجل : أخاف أن أخرج معك فيغضب نـادر ويظن أنني أخطفك منه .

رفعت حاجبيها وقالت معترضة : ليس بيني وبين نادر أي علاقة .

كان يتكلم معها باللغة الفرنسية ، فهي لا تعـرف اللغـة العربية . غير أنه كان يتكلم بـبطء حتـى يتـذكر الألفـاظ المناسبة لما يود أن يقوله . كانت تساعده في اختيار الألفاظ . وشجعته حتى يتكلم ، ولو أنها لم تكن تعرف مـا يريـد أن يقوله في بعض الأحيان . وكان يعرف اللغة الإنجليزية فكان ينتقل منها إلى الفرنسية ومن الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية .

دلته على معهد ليتعلم اللغة الفرنسية يقوم بالتدريس فيـه مدرسون عرب من المغرب . ثم أخذته في جولة إلى حديقة الشانزلزيه . وشعر كأنه يعود إلى القرية . حيث الخضرة في كل مكان رغم أن قدمه لم تطأ أي قرية من القرى في يـوم

من الأيام . ويستقي معلوماته عن الريف من رؤية الأشـجار في المدينة والحقول في طريق الأهرام بالجيزة .

ثم أخذته إلى المتاحف ، وكانت قد رأتها أكثر من مـرة ، فطفقت تشرح له ما فيها ، وكان مبهوراً لأنه يراها لأول مرة ، ولم ير من قبل متحفاً حتى متحف القاهرة . ثم صادفا وهو يتمشى معها المسلة المصرية هدية أحد حكـام مصـر إلـى فرنسا ، فأشار إليها ، وهو يقول : هذه آثارنا . وبحث فـي رأسه عن اصطلاح المسلة باللغة الفرنسية ، فلم يجد . ووعد نفسه أن يبحث عنها في القاموس الذي اشتراه لينقله من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية أو العكس .

استغرب قدره العجيب . فالنساء تأتي إليه ولا يذهب إليهن . حينما تعرف بفاتن هي التي أقدمت على التعرف به ولـم يبادر . وحينما تعمق الحب بينهما ، أعتذر عن عدم الارتباط بها لأنه لا يملك مقومات فتح باب بيت علـى مصـراعيه ، فوعدته أن تذلل له الطريق ، واشترت الشقة والأثاث . فـي زمن كان شراء الشقة درب من الترف . تلك الشـقة التـي باعتها بعد ذلك ، وتركته في الشارع . وهي التي مارسـت

الحب معه ، ولم يرفض . فهل سيلفيا ستكون على هذه الشاكلة ؟ ..

في يوم آخر ، أوقفت سيلفيا سيارتها ، وقالت له : أركب . ألا تريد أن تدعوني إلى المرح في كازينو . قال : الحقيقة أن ما آخذه من راتب لا يفي بالجلوس في كازينو . قالت : أركب . لا تكن كسولاً . غداً يوم الأحد . تذكر أنه إجازة . نفس السيناريو يتكرر . هل كتب عليه أن يعيش نفس الأحداث كل فترة زمنية . بمجرد أن ينتهي منها يعود إليها مع شخصية جديدة ؟ ..

ركب رغماً عنه . وأخذته بسيارتها إلى كازينو لترقص معه . أعتذر لأنه لا يعرف كيف يرقص . غير أنها أصرت قائلة : مثلما أعلمك الفرنسية أعلمك الرقص .

استندت إليه ، وهو يحاول أن يفسر ظاهرة أن سيلفيا تنجذب إليه رغم أنه متباعد عنها . ولا تنجذب إلى نادر الذي يحاول أن يروي لها نكتاً مصرية فجة - ولا يدري من أين استمدها ذلك المسلم المنتمي - كأنما كان يستثيرها . لا يمكن أن يكون ذلك الرجل كان منتمياً إلى جماعة الإخوان المسلمين . يبدو أنه ترك جلده في مطار القاهرة واشترى

جلداً آخر في مطار باريس . ولماذا لا تلاحقه النساء مثلي ؟ .. هل وجهي الأسمر جذاب ؟ .. هـل عينـاي السـوداوان مغناطيسيان يجذبان الجنس الآخر ؟ .. هل طولي يسـتلفت نظر الجنس الآخر ؟ .. ماذا في يجذب ؟ ..

التصقت به فأدرك أنها تريد إثارته . ولما انتهت الرقصة عاداً إلى المائدة . كانت تتعمق بالنظر إليه كأنها تعيش فـي بحر من الهيام . وهو يحاول أن يتجنب النظر إليها ؟ .. سأل : ماذا لو رآنا رئيس التحرير معا ؟ ..

قالت : أتخاف ؟ .. إننا في فرنسا يا فتى ولسنا في الشرق . ثم لا أحد وصياً علي . إذا حاول الوصاية أترك له العمـل وأعمل في مكان آخر . ألف يطلبونني .

قال متحسراً : أنت ألف يطلبونك . لكن إذا طردني لأني على علاقة بمديرة الحسابات فلن أجد من يؤويني .

قالت : لا تخف . إن بيتي مفتوح لك .

" أجل وبعد عدد من السنوات تطردينني منـه . وأعـود شريداً في باريس . ولن أجد في ذلك الوقت نفيسة تنتشـلني وتؤويني في شقتها المتواضعة ؟ .. "

رد عليها قائلاً : شكراً .

لما عاد إلى البنسيون في الحي اللاتيني ، وجد نادر ينتظره عند باب حجرته . يذهب ويجئ في قلق . بادره نادر قائلاً : أين كنت ؟ ..

قال : روحت عن نفسي . ألا أستحق أن أروح عن نفسي ؟ . .

قال : ألم تكن معك سيلفيا ؟ ..

سأل : إذا كنت مع سيلفيا . هل هي قريبتك تمنعني من أن أخرج معها . أم تظن أنها تحت وصايتك ؟ ..

قال : هذا ما أريد أن أتأكد منه . إنها تحاول غوايتك فكن حذراً .. لقد حاولت معي فرفضت لأني مسلم .لا أزني .

ربت عليه وهو يقول : أحسنت .

عرضت عليه سيلفيا أن يعيش معها في شقتها . وإذا كان لا يريد لأحد أن يعرف فلا بأس فلينكر العلاقة . ولكن ليبق معها .

سألها : وما صفتي سأكون ؟ ..

قالت : أصدقاء . هنا في فرنسا يمكن لك أن تبقـى مـع شابة في بيت واحد كأصدقاء .

نفس السيناريو يتخلق . لكن يختلف فقط في إضافة جديدة أن علاقة الزواج غير قائمة . ولذلك من السهل طـردك يـا بطل . على الأقل سوف أجد لقمة هنيئـة وفرشـاً نظيفـاً . ومأوى جميلاً . ربما لا تجد لقمة وتطلب منك أن تشتريها . وربما لا تجد فرشاً إنما ستقول لك كل ينظف فرشه . ربمـا لا تكون امرأة متفانية مثل فاتن . مادية جدلية . ولكـن لـم انقلبت فاتن هكذا ؟ .. كيف ظنت أنني ملحد وأن لا دين لي . وما تفعل الآن ؟ .. أنت ذاهب إلى الزنا بقـدميك ؟ .. لا يوجد زنا مادام هناك تراض بين المـرأة والرجـل . هـذه أسطورة خلقها الشيوعيون أمثالك . ألا ينبغي أن تكون المرأة لا رجل لها والرجل لا امرأة له . أم أن الأمر فوضـى . ألا ينبغي أن يوافق المجتمع على ذلك التراضي ؟ .. والمجتمـع ماله ومال هذا الوضع ؟ .. هذه أساطير خلقناها . وأسـاطير حلت محل أساطير . أنت تخرف ! ..

حمل حقيبة مليئة بالملابس الجديدة كان قد اشتراها خلال سنة له في باريس ومر على صاحبة البنسيون ودفع ما عليه

من إيجار متأخر . وخرج ليجد سـيلفيا تنتظـره بسـيارتها الصغيرة ، فركب بجانبها ووضع الحقيبة في حقيبة السـيارة وقد فتحتها سيلفيا آلياً .

لما دخل بيتها لم يصدق . بيت منظم ومرتب ويبدو كـأن عشرات الخدم قاموا بكنسه ومسحه وتنظيفه وترتيبه . كانت فاتن هي الأخرى سيدة منزل . يبدو أن ثروتها التي ورثتهـا عن أبيها هي التي ساعدتها في شراء الشقة . لم يسألها أبـداً عن مصدر النقود . كانت تتناول ثلاث أرباع مرتبه وتتـرك له الربع . هل ستفعل معه سيلفيا ذلـك ؟ .. كانـت فـاتن تصرف في شقتها ربما ضعف ما تأخذه منه . ولم تكن تشكو أو تتذمر . كانت تتمتع به ويتمتع بهـا . لا وقـت عنـدها للسخط . تنجب له في كل عام طفل . أين اختفت بالأولاد ؟ ..

أشعر بوحشة إليهم ؟ .. أنت لم تبحث عنهم بجدية . كأنك ما صدقت أنها اختفت بهم . مسئولية وانزاحت عنك . شغلك التخفي عن الشرطة مع أنك لم ترتكب جريمة . ولما ذهبـت

إلى الشقة ولم تجدها فماذا فعلت ؟ .. عـدت تتسـكع فـي الشارع من جديد ؟ ..

أدخلته حجرة النوم وقالت : هذه الحجرة لنا ؟ ..

قال : وهل تطيقين النوم مع آخـر ؟ .. كانـت عيناهـا تقولان : لا أطيق . غير أنها سألته : هل لا تطيق ؟ ..

هز رأسه كأنما يعني أن لا أهمية للأمر . كاد يقول لهـا بالعربية : أهي نومة والسلام .

دخل بها . وعرف أن كثيراً من الرجال لمسوها قبله لكنها فضلته عليهم . ولكن ماذا سيفعل ؟ .. هل يبقـى راهبـاً . عرض عليها أن يتزوجها لكنها لم تقبل . قالت لـه : هكـذا الوضع جميل .

(١٦)

كان مضطراً إلى النقد من باب النقد حتى يأكل خبـزاً - كما يقولون في مصر - رغم أنه في بعض الأحيـان يؤيـد التصرفات التي ينتقدها. لكن هكذا كانت إرادة رئيس التحرير . فقد قرر جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس ، فقـال إن عليه أن ينتظر حتى كان امتياز القناة سوف ينتهـي . وهـو يعرف أن بريطانيا لن تتنازل عن قناة السـويس حتـى لـو وصل الزمن إلى عام ١٩٦٨ وغيرها من الـدول الأوربيـة مالكة الشركة التي تدير القناة فترك الدجاجة التـي تبـيض بيضاً ذهبياً وتسليمها لمصر أمر مستحيل إلا بـالقوة . لكـن هكذا كانت إرادة رئيس التحرير ، ولو أنه كان يتحايل فـي مقالاته في خاتمتها يلقي سؤالاً ساذجاً : وهل كانت بريطانيا ستترك القناة وقتها ؟ ..

انتقد تصرف الحكومة المصـرية فـي تحديـد الملكيـة الزراعية . وطالب بالضرائب التصاعدية على الملاك . ففي بريطانيا أدت الضرائب التصاعدية إلى تحديد الملكيـة دون التدخل القسري للمشرع . لقد باع النبلاء أراضـيهم حتـى تنخفض شريحتهم في الضرائب ويتمكنوا بالوفاء بها دون أن

يضطروا لبيع باقي الأرض . ثم يضع سؤاله في النهايـة : وهل كانت الضرائب التصاعدية سوف تكون بالقسوة علـى الملاك بحيث يبيعون أراضيهم ؟ .. إنهم لو دفعوا الضرائب دون بيع فسوف يستمر الإقطاع قائماً .

استمر على هذا المنوال ، يضرب ويلاقي - كما يقـول الأهل في مصر - في مقالاته لدرجة إعجاب رئيس التحرير به ، وانتقاده لنادر الذي كان يريد أن يضـيع علـى المـرأة حقوقها ، ويعيدها إلى عصر الحريم ، ويفتي أن تعليمها كان يجب أن يقف حتى الثانوية العامة . كل ذلك لأن سيلفيا خذلته ولم ترتم تحت أقدامه . وعشقت الشيوعي وأحبته . واسـتمر يلقب صديقاً بالشيوعي رغم أنه يجده يصلي معه في المسجد الذي أقامه الجزائريون المسلمون في قلب باريس ..

كان صديق ينتهي من الصلاة ويتضرع إلى الله أن يغفـر له . ودائما ما يعنف نفسه لأنه سقط في منطقة حريق بـين الكفر والإيمان . لا يستطيع أن يكفر كفراً كاملاً ويجد نفسـه يهرع إلى الصلاة . ولا يستطيع أن يؤمن إيماناً كاملاً ، لأنه يرتمي في أحضان سيلفيا دون زواج .

جاءت يوماً تقول له : لقد حملت .

قال : مبروك . ثم تساءل : وهل تنوين أن تجهضي نفسك .

قالت مستنكرة : أجهض نفسي !! .. كيف أكـون امـرأة وأجهض نفسي . لقد خُلقت المرأة للإنجاب أولاً مهما تقدمت حضارياً . لكن أنوي أن أتزوجك .

قال صديق مستغرباً : ولكنك كنت ترفضين الزواج .

قالت : ذلك حينما كنت امرأة مستقلة . أما الآن فأنا اثنان . ولا يمكن أن أبخس حقوق الثاني وأفرط فيها .

سأل متعجباً : ومن هو الثاني ؟ ..

قالت : الطفل . أليس له حقوق ؟ ..

نظر إليها بعمق وسأل : وما هي حقوقه ؟ ..

أجابت بسرعة : أول حقوقه أن يولد طفلاً شرعياً .

سألها : وكم ولداً تريدين ؟ ..

قالت : لا أعرف .. حسب قدرتي .

ضحك وضحكت معه .

أعلن زواجه من سيلفيا . ، وعرف به كل من يعمل فـي المجلة . استهجن نادر أن يتزوجها . وقـال لزميـل لـه :

سيصير الأولاد مسيحيين . سأل زميله : ألم تكـن تلاحقهـا وماذا لو كنت تزوجتها ؟ .. أتظـن أن أولادك منهـا لـن يكونوا مسيحيين ؟ .. أستهجن ما يردده محدثه وراح يقول : أنا ألاحقها؟ ! .. إنها ليست جميلة لدرجة أن أصاب بالخبـل من جمالها وألاحقها .

كان نادر يعرف أنه يكذب فطالما طاردها ولطالما تأمـل جمالها الباهر . ذلك الشعر البني المقصـوص كمـا يقـص الأولاد شعرهم وعيناها الزرقاوان العميقان كأنهمـا بحـران ممتدان إلى مالا نهاية للنظـر . ورموشـها الكثيفـة غيـر الصناعية كأنها أشجار تطل على البحـر تحـدد شـاطئيه . ضاعت منه وإلى الأبد . أحمد الله على أنهـا ضـاعت وإلا كانت قد نصرت أولادك منها . نصرت أولادي . أنا الـذي كنت سأجعلها تعتنق الإسلام .. وأولادها مني من بعدها .

حينما تكورت بطن سيلفيا ، بدأ صديق يكتب عن حقـوق الطفل المهددة في مصر . الطفل الذي لا تراعي الدولـة أن ينتظم في الدراسة . الطفل الذي يعمل في سن لا يجوز فيها أن يعمل . الطفل الذي خرج إلـى العمـل فـي الـورش

والمصانع الصغيرة والبقالات وليس فقط في الزراعـة ولـم الدودة .. دودة القطن . وسرح بفكره في أطفاله الأربعة فـي مصر . اشتاق إليهم بشدة . سيكون الفرق بينهم وبين طفلـه من سيلفيا عدد كبير من السنين . لقد ولد أبو بكر فـي عـام ١٩٤٨ . ثم أنجبت فاتن عثمان قبل الثورة في أغسطس عام ١٩٤٩ . ثم تلته بعائشة (١٩٥١) . وصفية (١٩٥٢) . سيكون الفرق بين طفل سيلفيا وصفية تسع سـنوات . أو أقل قليلاً . هل هناك أمل في أن أراهم ؟ .. وهل سأسـتطيع أن أعثر عليهم وعلى أمهم ؟ .. أتراها طلقتني وتزوجت ؟ .. شعر بوحشة كبيرة لافتقاده أولاده . ونعى على نفسه لأنه كلما يبتهج يفقد ابتهاجه بعد قليل . ماذا يفعل مع هذه الحيـاة الممزوجة بالمر والسكر ؟ ..

ابتهج صديق قديماً لما قامت الوحدة بين مصر وسوريا ، ولكنه اضطر أن يكتب ضد ابتهاجـه لأن رئـيس التحريـر أصدر إليه الأوامر أن لا وحدة بين دولتين عربيتين . كـان رئيس التحرير من أنصار التفكك بين الدول العربيـة . إنـه يعارض كل خطوة يخطوها جمال عبد الناصر ، كانت هناك

تعليمات تصدر إليه أن يقف هذا الموقف . ولكنه يسـتغرب أنه لا يؤيد عودة الملكيـة . أو يناصـر أشـياع الملـك . واستغرب أن رئيس التحرير يبارك الانفصال . واضطر أن يكتب ليبارك الانفصال . ووجد حجته في البعد الجغرافي بين البلدين وتسلط زعماء مصر على السوريين من أمثال عبـد الحكيم عامر وتسلطه في الجيش السوري .

كان صديق يؤيد تأميم المشروعات لأنه شرب من فكـر التأميم سنوات قبل أن يهرع إلى باريس . غير أن رئـيس التحرير لم يكن يؤيد التأميم ، فاضطر أن يكتب ضد التأميم . إنه اعتبر نفسه لعبة أطفال في يد رئيس التحرير لكن مـاذا سيفعل ؟ .. لا يمكن أن يعارض وإلا فقـد وظيفتـه . وعلل وضعه بأنه ريشة في مهب الريح . والريح هنا رئيس التحرير والريشة هي نفسه المتأججة الخامدة . والتي تجمـع بين الحريق وبين السكينة في نفس الوقـت . واضـطر أن يكتب في نهاية المقال : لكن ماذا لو أدت السوق إلى بطالـة زائدة . ألن تدعو الحاجة إلى الدولة أن تتدخل لامتصـاص هذه البطالة ؟ .. وسكت .

وفات التساؤل على رئيس التحرير . فمـادام أن الكاتـب هاجم التأميم في بداية المقالة ، فلا معنى لسؤاله في النهايـة إلا أنه تزيد .

(١٧)

هل يخطفها منك هكذا ولا تحرك ساكناً ؟ .. وأنت واقف تتفرج . إذا كانت لا تحبني فكيف أجذبها إلي ؟ .. مـا هـي الميزة التي فيه حتى تحبه من أجلها ؟ .. هل مـن الممكـن تفريقهما ؟ .. هل تحولت إلى شيطان يا نادر ؟ .. إذا كـان الحب ضاع مني فإنني أتحول إلى إبلـيس لاسـترداده . إن التفريق بينهما لن يحدث إلا من خلال الدين . فإذا ما تمكنت من سيلفيا وحولتها إلى متدينة ، فإنها سوف تنفر من صديق عبد المحسن ، لأنه غير متدين ؟ .. هذه هي الفكرة الصائبة ، فكيف تحول سيلفيا إلى مؤمنة ، يبدو أن لا صلة لها هـي الأخرى بالدين والإيمان . هذا أسلوب لن ينتج أثره يا سـيد نادر .

سألها وهو يراجع في مكتبها معاملة مالية له : هل تعرفين شيئاً عن الإسلام ؟ ..

قالت : ولم أعرف ؟ ..

قال : على اعتبار أنك زوجة لرجل مسلم .

ضحكت وقالت : ومن قال لك عن صديق رجل مسـلم ؟ ..

قال كأنما يوغر صدرها ضده : إنه صديقي . جئنا معـاً من مصر . وعملنا معاً . ونصلي معاً في المسجد . وسوف يكون لك أطفال منه . وسوف يكونون مسلمين ألن يكونـوا مسلمين بحكم أن أباهم مسلم ؟ . .

قالت : سنربيهم على الأخلاق الحميدة وليختاروا حينمـا يكبرون ديانتهم . إما أن يكونوا مسلمين أم يكونوا مسـيحيين .. مثلي .

سألها بخبث : وهل سيقبل منك صديق ذلك ؟ ..

أرادت أن تنهي حديثه فسألته : وما هو الإسلام ؟ ..

قال وهو يشد مقعداً ليجلس وهو يقول : هكذا يا سيدتي . إن الإسلام بني على خمس . أولها شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله . وثانيهما الصلاة ثم الصوم ثم الزكاة ثم حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة لمن اسـتطاع إليـه سبيلاً .

قالت : ولكني لا أري صديقاً يصلي أو يصوم .

قال : ربما لا يصلي لأن إيمانه ليس راسخاً وقد يصـلي ولكنك لا ترينه . ومن ثم سـيكون أولادك منـه لا رسـوخ لإيمانهم . هل تقبلين ؟ ..

قالت تغيظه : وما المانع ؟ .. هذا اختيارهم .

يأس منها وانصرف . لابد من التفريق بينهما بأي ثمن . فكيف تفرق بينهما يا عم نادر ؟ .. نعم هذه هـي الخطـة . أذكرها بأنه مسلم يمكنه أن يتزوج بأربع نساء . فما اليقـين الذي لديها أن صديقاً لم يتزوج وأن الزوجة لم تعـد علـى ذمته ؟ .. وهل ترضى لو كانت الزوجة على ذمته ؟ ..

وفي مقابلة أخرى تعمدها . قـال لهـا : ألا تعـرفين أن المسلم يمكنه أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع من النساء ؟ ..

قالت : سمعت ذلك ولكن ذلك ممنوع في فرنسا.

سألها : وكيف تثقين أن صديقاً لم يكن متزوجاً من قبـل زوجة ولا تزال على ذمته .

قالت : الرجل في فرنسا يتزوج وتكـون لـه عشـيقة . ومادام لا يجمع بيننا في فرنسا فلا أهمية للأمر .

رغم أن مسعاه خاب ، لكن سيلفيا لم تفوت الأمر ، تحينت الفرصة وسألت صديقاً : هل أنت متزوج في القـاهرة ؟ .. رفضت أن تسأله : هل كنت متزوجاً ؟ .. لأنه في هذه الحالة سيجيب بأنه كان فعلاً متزوجاً . ارتبك وأختار فـي ثـوان

الإجابة بمناقشة الأمر في رأسه . هل يقول لهـا الحقيقـة أم ينكرها . أجاب : نعم كنت متزوجاً . زادت في أسئلتها بـأن استجوبته قائلة : وهل طلقتها ؟ .. قال : نعم .. طلقتها منـذ زمن بعيد .

كذب حتى يستريح منها . فوجد نفسه تسقط فـي سـؤال آخر : وهل أنجبت منها ؟ .. قـال دون مواربـة : نعـم . أنجبت ولكن هربت بهم . ولا أعرف لها مكاناً .

عادت تسأل : كأنك تجمع بين زوجتين .؟ ..

أجاب : كيف أجمع بينهما وقد طلقت واحدة ؟ ..

قالت تنذره : أنت تعرض نفسك للمسئولية بهذه الطريقة . وهي الجمع بين زوجتين .

قال : لا مسئولية .. ولا خطأ .. لقد طلقتها وانتهى الأمر . فنحن المسلمين إذا قلنا لزوجاتنا أنت طـالق فـلا تصـير زوجته منذ إطلاق الكلمة . بل لا داعي في الـزمن القـديم لتوثيق الكلمة ولكن في الوقت الحالي لا بد من التوثيـق لأن الذمم خربت .

ولم تفكر سيلفيا أن تسأله : وهل نطقت الكلمة . ذلك لأن لا دراية لها بالإسلام وتصرفات المسلمين أو لعلها خشيت أن تسأله فيتضح أن المرأة لا زالت زوجته . ولكن لا أهمية عند سيلفيا أن يكون صديق لا يزال متزوجاً ، فزوجته وهي بينهما بحر وأراضي . ولن تفكر إذا كانت هجرته أن تبحث عنه في باريس .

استغرب نادر أن يراها أمامه في حجرة المحررين . لم تكن من عادتها التجول بين الحجرات . كانت باعتبارها مديرة حسابات المجلة تأبى التجول . قالت : سألته ما إذا كان متزوجاً أم لم يتزوج ؟ ..

اندهش من كلامها فسألها : من ؟ ..

قالت : صديق .. زوجي .

سأل : وماذا قال لك ؟ ..

قالت : فعلاً كان متزوجاً وله منها أولاد .. سألها كأنما وجد منفذاً ينفذ منه يتحول إلى نقطة ضعف يتسلل منها إليها : وهل تقبلين أن يكون زوجك متزوجاً وله أولاد ؟ ..

قالت : قرأت يوماً في مجلة مترجمة عن اللغة العربية أن سألوا جحا إن الفحشاء في المدينة . قال : مادامت ليست في بيتي فلا أهمية لها . قالوا له إن الفحشاء في بيته . . قـال : مادامت بعيدة عني فلا أهمية . والزوجة الثانية مادامت بعيدة عني فلا أهمية لها .

كان نادر يمسك كتاباً ، ويجلس وقد مدد قدميـه أمامـه ، فنهض كالملسوع مفزوعاً ، وألقى بالكتاب على مكتبه ، وقال بجزع : أنت لا يتحملك أحد .

(١٨)

أربع عشرة سنة تمر عليه وهو في باريس . ولا يـزال يكتب في هذه المجلة الباريسية باللغة العربيـة . ولا يـزال متزوجاً من سيلفيا الفرنسية . وقد أنجبت له ثلاث أطفـال . ولداً وبنتين . رغم أن سيلفيا لا تطالبه بشيء إلا أن يكـون زوجاُ إلا أنه حزين . كان يكتب ما لا يؤمن به . ويؤمن بما لا يكتب . لكن لو عاد إلى الوطن وكتب ما يؤمن به لأعتقل . ولو كتب ما يؤمن به لأهين أما هنا فهو متوار . من يقـرأ هذه المجلة التي يكتب فيها . لعلها تطبع وتُوزع بالمجـان . من أين يأتي تمويلها . سؤال يلح عليه لكن لا يعرف إجابـة عليه . واستغرق كل ذلك الوقت ، ولم يصل إلـى جـواب شاف .

كانت الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية تأتيه من مصر عبر الصحف . لكن لم تكن لترضي غليله . كان يريد أن يعرف شيئاً عن أولاده . لا يوجد له أحد له صلة بهم وبه ليوصل إليه أخبارهم . ولد وحيداً وعـاش وحيـداً . لعـل أكبرهم في الخامسة والعشرين من عمره الآن . هل تعلموا ؟ .. وإلى أي مستوى تعليمي وصلوا ؟ .. ألم يحـن الوقـت

ليعود ويعرف شيئاً عنهم ؟ .. هل سـينكرونه بنـاء علـى توصية من أمهم ؟ .. أم سيرحبون به ؟ .. وهـذه المـدعوة نازلي هل عادت إلى زوجها الشرطي السكران ؟ .. وإلى أي مستوى درس ولداها . لو شقوا طريقهم في التعليم بجـدارة لتخرجا الآن سواء كان تعليمهم نظرياً أو عملياً أو هما على وشك التخرج لو دخل أحدهم كلية الطب . وهل كفت أمهما عن إباحيتها واستقامت أم لا زالت متبرجة ؟ .. ونفيسة ماذا فعلت بها المقادير هل لا زالت مع زوجها الجديد ؟ .. هل لا زالت تعاني من سيناريو حياتها الأولى : تنجـب ويخطـف زوجها أبناءها منها ويحرمهم منها . هل أنجبـت لزوجهـا الجديد وخطف أولادها وفر بهم أم أن الرجل كان مسـتقيماً حنوناً لا يزال يعيش معها وأنجبت له اثني عشر ولداً ؟ ..

بينما هو جالس في مقهى مشهور يزدرد رشفة بعد أخرى من فنجان القهوة . ليكتب مقالته الجديدة . مقلداً توفيق الحكيم وهو يكتب في ضجيج المقاهي . ولاح له أن يكتب عن ذلك الرجل الذي تولى عرش مصر وكنس الآخرين الذين رفعوه

. رأى رئيس التحرير تلك المجلة التي كان يعمل بهـا فـي مصر . قبل أن يفكر في المنفى الاختياري . نادى عليه قائلاً : إبراهيم بك .

لا يمكن للمصري أن يلغي الألقاب لأنه وطن نفسه علـى إطلاقها منذ عشرات السنين . التفت إبـراهيم إليـه وتأملـه طويلاً . لم تكن ملامحه قـد تغيـرت كثيـراً كـان عينـاه السوداوان لا زالتا تلمعان ولكن هناك شعيرات بيضاء بدأت تدب في فوديه . وطوله لا يزال متعملقاً ولم ينحن .

قال مسروراً لأنه عرفه : من ؟ .. أبو بكر عبد الجواد .. كيف حالك يا رجل ؟ ..

قال : بل صديق عبد المحسن .

صافحه بالأحضان وهو يقول له : تذكرت .. أنت لا زلت تكتب . تكتب في مجلة العرب اليوم .

قال : ذلك مضبوط .. اكتب باسمي الحقيقي . لكن مـاذا تعمل في باريس ؟ .. هل جئت سياحة ؟ ..

قال كأنما يتجاهل سؤاله : ألم تجد غير تلك المجلـة ذات التمويل الأمريكي الصهيوني حتى تكتب فيها ؟ ..

قال : تمويل أمريكي صهيوني .. كيف عرفت ؟ ..

قال إبراهيم هادئا، وهو يجلس : وهل يخفى علي شـيء في مصر يا صديق . معروف أن المخابرات الأمريكية C. I. A تمولها وتقف وراءها .

قال صديق وهو يشعر بالخجل : لم اكن أعرف .. لكن ما الذي جاء بك إلى باريس ؟ ..

قال إبراهيم متحسراً : مطرود بطبيعة الحال . اعتبـرت مشايعاً للعصر البائد . عصر على صبري وغيره . منفـي مثلك . نفيت نفسي قبل أن يصدر أمر بنفي .

نظر إبراهيم إلى صديق وهو يرى الأوراق أمامه ، وسأله : ماذا تكتب ؟ ..

قال : كنت اكتب مقالة .

تهكم وهو يسأل : عن ماذا ؟ ..

قال ضاحكا : الكنس على الطريقة المصرية .

قال إبراهيم وهو يتأمل : نعم .. فعلاً كنسهم في غمضـة عين . ظنوا أنهم سيورطونه فإذا بـه يلـتهمهم . ويكنسـهم جميعاً من الحكم . وينفرد بالسلطة .

سأله صديق قائلاً : لكن كيف خرجت ولم يشعر بك أحـد ؟ ..

قال : الوضع الآن غير الوضع قبل أن تغـادر . طلبـت إجازة أتفسح في باريس . جمعت حقائبي وحولت أموالي من خان الخليلي إلى فرنكات . وحصلت على التأشيرة من مصر وفرنسا. وذهبت إلى المطار وركبت ولا أحد يحـس بـي . وسوف أرسل لهم استقالتي بالبريد .

قال : وماذا تنوي أن تفعل ؟ ..

قال ضاحكاً : سوف اكتب مثلك تماماً .. ولكن مع مجلـة تابعة للمخابرات الفرنسية .

وضحكا معاً كأنما ألقى نكتة .

(١٩)

كانت تناشده كل عام أن يذهب معهـا وأولادهمـا إلـى الريفييرا ، فكان يذهب سنة ويمتنع سنة أخرى . أما هي فلم تكن تتخلف سنة واحدة . كانت تريد أن تتمتع بشبابها قبل أن تفقده ، وتمتع أولادهما . ولما التقى بإبراهيم رئيس تحريـر مجلته السابقة ، جرفه الحنين لرؤية مصر وأقلقه أن يكتـب في مجلة ذات تمويل أمريكي صـهيوني .. وأصـبح ذلـك الحنين هاجسه اليومي ، يمني نفسه به في كل لحظة صـفاء وقلقه يستبد به ويجعله لا ينام كأنما أجرم جرماً شـديداً . لا يعرف ما الذي دفعه للتفكير في أولاده من فاتن . ترى مـا الذي فعل بهم الزمان وماذا فعلوا بالزمان . ولعل امتعاضـه من أنه يعمل في مجلة ذات تمويل صهيوني أمريكي هو الذي أشعل في فؤاده شعلة الحنين . سأل سيلفيا يوماً أن يفكر فـي أن يرى الأولاد غير أن سيلفيا رفضت ، وزعمـت أنهـا لا تعاني من هوس الفرنسيين بالمصريات . وخشي أن يجبرها على السفر ، فتهرب هي والأولاد مثلما هربت فاتن من قبل . غير أن الحنين جرفه وجعله يفكر جدياً أن يذهب وحده .

كان من عادته كل سبع سنوات أن يجدد جـواز السـفر المصري الخاص به . وأن يستخرج لأولاده جوازات سـفر لهم ، غير أنه لا يطلع سيلفيا عليها . وكثيراً ما كان يحـاول أن يسأل عن تأثير مقالاته في الناس ، ويحاول أن يتعـرف على أن اسمه لم يوضع في القائمة السوداء ، ولكن أحداً لـم يدله على شيء . وكان يطمئن فقط حينما يتم تجديد جـواز سفره . وعرف أن مقالاته - رغم أنها تنتقد النظام - غيـر أن أحداًّ لم يذكرها ولم يحدث بسببها أن نُقل اسمه من القائمة البيضاء إلى القائمة السوداء . بل إن اسـم صـديق عبـد المحسن لم يكن معروفاً في مصر . واستغرب أن مقالاته لم يكن لها تأثير رغم أنه انتقد سقوط مصر في بئر الهزيمـة . وأن الأحكام التي صدرت على العسكريين سبب الهزيمة لـم تكن رادعة وغير كافية بل تافهة . وأن هناك - لم يـذكرهم بالاسم - من هم أحق بالمحاكمة . وسخر من موت المشـير عبد الحكيم عامر لأن بقاءه حياً كان سـيفتح مـاخوراً مـن الفضائح لن يتوقف ما يتدفق منه من عفن . وقد حدث فتحـه لكن لم يكن له رائحة نفاذة . لكن تلك المقالات كانـت فـي زمن مضي عليه أعوام ولعل أحداً لا يذكرها الآن في أواخر

العام ١٩٧٢ . وكانت التعليمات لديـه ألا يشـجع الحـرب وعرف السبب أن الصهيونية العالمية لا تشجعها وذلك بعـد حديثه مع رئيس التحرير العازل لنفسه ، لذلك لم يكتب حرفاً في حرب الاستنزاف .

أخيراً حصل على إجازة سنوية طويلة المـدى ، وقـرر السفر . وودعته سيلفيا في المطار ، وكان يقرأ في عينيهـا نظرات الوداع لم يشهدها في عينيها من قبل . توجس مـن نظراتها . وظن أنها تتهمه بالمروق من سلطانها لأنه فكر أن يعود إلى مصر . وأن عليه أن يدفع ثمن المروق .

لم تكن لديه خطة فيما سيفعله . لا يعرف من أيـن يبـدأ وترك الأمر للمقادير .

اشترى قبل أن يركب سيارة الأجرة التي سوف تقله إلـى فندق في ميدان التحرير ، تلك المجلة التي كان يكتب فيهـا . ليقرأ فيها أخبار رئيس التحرير القديم الهارب إلى فرنسا . أو يقرأ أخبار رئيس التحرير الجديد المعين من قبل السـلطات المصرية . ووجد رئيس التحرير يكتب عن الحـرب . وأن الحرب على الأبواب وليهدأ الشباب ولتتقبل النسـاء ويـلات

الحرب . فكم من حبيب سوف يغيب . وكم من زوج سـوف يختفي . وكم من ابن بار لن تجد له أثراً . ولكن كـل ذلـك فداء لمصر العزيزة . وارتج قلبه . وقلب في المجلـة ليجـد مقالة كتبتها نازلي شفيق . المرأة لا تزال تكتب . لم تهـرب مثل رئيس تحريرها السابق . كان لها سلطان مستبد إلى أمد بعيد وهذا السلطان لن يزول . لن يتمكن أحد مـن خلعـه . واستغرب أن تضع بجانب اسمها صورتها . صـورة لهـا بالحجاب . غريبة . هل تحجبت نازلي شفيق المرأة الداعرة ؟ .. كانت دعارتها خافية لكنها كانت معروفة . كان بعـض الصحفيين يسمونها كليوباترة الصحافة . تلـتقط الصـحفي وتمتعه وتتمتع به إلى أن تزهده فتلقي به في سلة المهملات . هكذا فعلت بك يا صديق عبد المحسـن . امتصـت رحيـق شفتيك حتى أرادت أن تتـوب فأدخلتـك السـجن لتأديبـك وإصلاحك ولكن صفحتك النقية البيضاء جعلتك تفلـت مـن المعتقل . فيم تكتب ؟ .. تكتب عن غزوات النبي عليه السلام . ما هذا كأن مصر حدث بها انقلاب في الأخـلاق . صـار المؤمن مستهتراً . وصار الكافر مؤمناً ؟ ..

وفي الفندق ، طلب دفتر الهواتف ليطلع عليه . يريـد أن يعرف مكان زوجته فاتن . وهل لها هاتف يمكن أن يتصـل به . إن الهاتف القديم كان باسم أبيها المتوفى . ذلـك الـذي ورثت عنه تلك الأموال الطائلة التي اشترت بجزء منها الشقة لتكون عش زواجهما . ولكنها باعتها لما أدركت أن الـدين يفرق بينهما . أنت لا إيمان لك على أساس أنك شـيوعي . وهي مسلمة ولا يجوز لمسلمة أن تتزوج من ملحد . هكـذا فهمت من حديثها السريع القاسي غير المنتظر إجابـة منـك عبر هاتف المجلة منذ أربع عشرة سنة . وقد عرفت أن أبا بكر عبد الجواد هو صديق عبد المحسن الهيهي الصحفي في المجلة . وذلك من خلال صورة له في حفل عشـاء نشـرته المجلة .

لم يجد اسماً للأب . ولم يجد اسم الأم رغم أنه تذكره بعد لأي . ولكن وجد اسمها فاتن واسم والدها ولقبه . لا يمكن أن ينسى اسم من تزوجها . طلبها هاتفياً فردت :

- من ؟ ..

قال بصوت متهدج ، لا يعرف كيف تهدج فجـأة : أنـا صديق عبد المحسن الهيهي .

- من ؟

- صديق عبد المحسن الهيهي .

- وماذا تريد ؟ ..

- أريد أن أتكلم مع السيدة فاتن عاصم محمود .

- أنا فاتن .. من أنت ؟ ..

- أنا زوجك يا فاتن . ألا تذكرين صوتي ؟ ..

- وماذا تريد ؟

- أريد أن أرى أولادي .. أليس لي أولاد ؟ ..

- لكن أنا ليس لي زوج .

- ربما كنت زوجك . هل طلبت الطلاق ؟ ..

- لا .. لم أطلب ولم أطلب ما دمت لم أتزوج .

شد أحد المستمعين إليها الهاتف من يدها وبدا أنها تقاومه بصلف وسأل : ألو ،،

قال : أنا صديق .

سأل : ماذا تريد ؟ ..

قال : من أنت ؟ ..

سأل من جديد : ماذا تريد ؟ ..

قال : أليس ذلك هو بيت السيدة فاتن عاصم محمود ؟ ..

- نعم هذا بيتها .

- أنا اسمي صديق عبد المحسن الهيهي ..

- من ؟ .. أبي ؟ ! ..

- من أنت ؟ ..

- أنا عثمان صديق عبد المحسن .. أين أنت ؟ ..

- أنا هنا في فندق في ميدان التحرير .. أريد أن أراكم .

- يمكن أن تأخذ العنوان وتأتي إلينا . لا يمكن للجيش أن ينتقل إلى القائد لكن من الممكن أن ينتقل القائد إلى الجيش .

- وهو كذلك ..

- هل لديك ورقة وقلم ؟ ..

لم يصدق أن الولد استقبله بهذه الحفاوة . ماذا قالت لهـم عني ؟ ..

ارتدى ثيابه بعد أن كان قد خلعها منذ قليل . وأشار إلـى سيارة أجرة . وقصد مدينة نصر في الحي الأول .

طرق الباب ففتحت له الصغيرة صفية . قال : أنا صديق عبد المحسن .

نظرت إليه الفتاة ذات العشرين ربيعاً وقال هاتفة : بابا ..

احتضنته ، فلم يصدق . هل كانت مشتاقة لهـذه الدرجـة إليه ؟ .. ماذا قالت لهم أمهم عنه ؟ .. دخل فوجـد عائشـة التي احتضنته هي الأخرى في شوق . ووجد عثمان يرتـدي ملابس الخروج . واحتضنه هو الآخر . سأل : وأين أبو بكر ؟ .. قال عثمان : هو الآن يعمل ضابطاً بالجيش ملازم أول الآن . ربما يأتي اليوم في إجازة . سأل الوالد وهو يجلـس في بهو الشقة : وأنت ؟ .. قال : أنا تخرجـت فـي كليـة الشرطة وأعمل في قسم مصر الجديدة . أما عائشة فهي في الجامعة ومنقولة إلى السنة النهائية فـي كليـة التجـارة .. وصفية منقولة إلى السنة الثانية بالجامعة كلية الحقوق .

قال : الحمد لله أنكم تواصلون تعليمكم .

سأله عثمان كأنما يحقق معه : وأين كنت ؟ ..

قال صديق : أنا أعمل في فرنسا منذ أربع عشـرة سـنة وبعض شهور .

شهقت صفية : في فرنسا .

التفت إليها : اضطرتني الظروف في مصر أن أسافر إلى فرنسا .. أعمل في مجلة هناك تصدر باللغة العربية .

لاحظ أن هناك ستارة تفصل بـين بهـو الشـقة وبـين الحجرات الداخلية . ولكن لم يتبين من الذي ينظر من خلال الستارة بفرجة يصطنعها من حين لآخر .. لعلها فاتن تتطلع إلى القادم الجديد .

سألته عائشة : وما هي الظروف التي استدعتك أن تسافر .. ؟

قال : اتهمت ظلماً أنني عضو في حزب ممنوع . وفقدت وظيفتي . واضطررت للعمل صحفياً أو كاتب مقالة بالأحرى في مجلة مصرية .. تلك المجلة التي لا زالت تصدر حتـى الآن . غير أن بلاغاً قُدم ضدي .. لا أعرف مـن قدمـه .. يتهمني صاحبه أنني أكتب باسم مستعار .. لأني عضو فـي ذلك الحزب . أنشر المبادئ الهدامة للحزب وأنا متخف .

انفتحت الستارة ورأي فاتن قد تضعضعت كثيراً ، وهـي تقول : ألم تكن فعلاً عضوا في ذلك الحزب ؟ ..

هاجمها قائلاً : إذن أنت التي قدمت ذلك البلاغ ضدي .

نكست رأسها وقالت وهي تائهة : أنا .. أبداً .. لا يد لـي في ذلك .. لم أقدم ضد أحد بلاغاً ..

نهض عثمان متهيجا ، ثم حاول أن يبعث السـكينة فـي نفسه ، ويتجه إليها وهو يقول : أدخلي أنت يا ماما الآن .

قال الأب مواصلاً الحديث وهم يستمعون في شغف إليه : وجدت صديقاً في الحبس يدعوني أن أسافر معه إلى باريس للعمل هناك . فهو يعرف مصرياً يعمل رئيساً لتحرير مجلـة باريسية فسافرت معه .

قالت عائشة وهي تكاد تثور : ألم تكن تعرف وقتها أن لك أولاداً ؟ ..

خرجت الأم ثائرة ، وهي تقول : قولي له يا عائشـة .. قولي له . سليه .

وبكت الأم ، وعثمان ينهرها : أرجوك يا أمي .. أدخلـي الآن .

تنفس صديق بصعوبة ، ثم أخذ نفسا قوياً ، وهو متوتر : أعرف بطبيعة الحال . لكن أين هم ؟ .. باعـت أمـك الثرية الشقة وأخفتكم عني .. فكيف أعرف أين أنـتم حتـى ألاحقها ؟ ..

خرجت الأم غاضبة وهي تقـول : بعتهـا لأن الشـرطة طاردتني . خسرت فيها لكني أمنت نفسي وأمنت أولادي من أي تعرض لنا .

قال عثمان بغضب : ماما أسكتي .

دخلت الأم ولكن يبدو أنها وقفت وراء الستار تتسـمع . واستطرد الأب : كما تعرفون .. أو لعلكم لا تعرفون .. كنت يتيماً لا أب ولا أم .. ولم تكن لي ثروة . ولم يكن لي بيت . عشت أياماً في حالة تشرد إلى أن رأفت بي خادمـة كانـت تعمل لدينا .. اسمها نفيسة . جعلتني أقابل مخدومتها اسـمها نازلي شفيق الصحفية المشهورة .. هي التي شـغلتني فـي المجلة . واخترت اسم أبو بكر عبد الجواد لأكتـب تحتـه . ولكن ثم بلاغ للشرطة وصل يقول فيه صاحبه أنني أتخفـى تحت هذا الاسم . واختنقت في الحبس عدة أيام . ومـا كـاد يعرض علي زميلي نادر السفر . حتى وافقت . وهو لا يزال يكتب معي في المجلة الباريسية . أسرعت بالحصول علـى التأشيرتين المصرية والفرنسية وغادرت البلاد . ووقتها ولا يزال المصري عليه أن يحصل على تأشيرة مـن الحكومـة بالمغادرة .

سألت صفية : ولم لم تسأل عنا طوال هذه السنوات يا بابا ؟ ..

قال : لا أعرف لكم عنواناً .

انفتح الباب ودخل الملازم أول أبو بكـر صـديق عبـد المحسن . وتوقف صديق عن الكلام . نهض عثمان ليعرف أبا بكر بأبيه . قال له : هذا أبي يا أبا بكر .

تأمله بإمعان . وتسمر في مكانه . نهض صديق ليصـافح ابنه البكر . غير أنه دفن نفسه في حضنه وطفق يقبله بشدة . خرجت الأم وهي تنهره : ما هذه العواطف الجياشة ؟ .. أين الكراهية التي ملأت قلوبكم نحوه ؟ ..

همس أبو بكر لأبيه : لا تؤاخذها.أختل عقلها منذ زمن .

(٢٠)

لم يصدق صديق أن هذا ما آل إليه حـال فـاتن ، إنهـا أصبحت مهزوزة الشخصية . ورغم ذلك تمكنت أن تربـي أولادها الذين خطفتهم وأخفتهم عن عينه . قيل له إنها تصاب بشرود في بعض الأحيان ، وتهذي في البعض الآخر ، ولـم تحاول أن تعالج نفسها . كأنما خاصمتها لأنها حرمتها مـن حبيب القلب بزعم أن لا إيمان عنده ، وحرمت أولادها مـن أبيهم . لكن الأولاد رغم اهتزاز شخصيتها كانوا متسـاندين مستقيمين ومتضامنين . ولم يكرهوها لأنها حرمتهم من أبيهم ، بل عطفوا عليها حتى تفلت من الطريق الوعر الذي وجدت نفسها فيه وما أصابها من ذلك الاهتزاز ، فتأكد صديق أنهـا لم تطلب الطلاق ، وتفرغت لتربية أولادها الأربعة ، لعلهـا كانت تأمل يوماً أن يعود زوجها إلى طريق الصلاح .

والغريب أن الأولاد تمسكوا بأبيهم ، وطلبوا منه أن يبقى في البيت . رغم أن أمهم أعلنت أنها انفصلت عنه في وقت سابق . ولا تعرف له مكاناً . ولا يمكنها الرجوع إليه . غير

أن صديقاً أعتذر وسألته حينئذ صفية المتعلقة بـه : ومتـى نراك ؟ ..

قال : أنا موجود في مصر لمدة شهرين . وسـوف آتـي لزيارتكم دائماً .

خرج صديق على وعد أن يأتي . وكأنـه زائـر ولـيس صاحب بيت . لم يتمسك به الأولاد كثيراً . ربما احتراماً لمشيئة أمهم غير المعلنة . وكانت فاتن تظهر وتختفـي وراء الستارة الفاصلة بين البهو والحجرات الداخلية كأنها مخـرج يشاهد نتائج مسرحيته في عيون الجمهور .

وعاد صديق يتساءل : ماذا سيكون الوضع ؟ .. وشـاهد مجلة نازلي شفيق – هكذا سماها – لأن أغلـب المحـررين اختفوا وحلت بدلاً منهم وجوه جديدة ، لكنها هي الوحيدة التي لم تتغير . وعاد يشاهد صورتها وهي بالحجاب . وأدرك أن فضوله سيدفعه إلى أن يبحث سبب انتقالها مـن حـال إلـى أخرى . تلك التي أصابتها .

وذهب إلى المجلة في اليوم التالي ، ليدخل حجرتهـا دون أن يطرق بابها ، فاندهشت لدخولـه عليهـا دون اسـتئذان وتأملته ، وكادت تعترض لولا أنها عرفت فيه عشيقها السابق

، فقالت : لم تتغير يا أبا بكر . قـال : لا تـنس أن أسـمي الحقيقي صديق عبد المحسن الهيهي . هل نسيت أنك قـدمت للمباحث العامة أنني أتخفى وراء اسم أبي بكر عبد الجواد ؟ ..

قالت وهي لا تزال تجلس إلى مكتبهـا دون أن تـنهض لمصافحته ولا يبدو عليها الاضطراب لمواجهتها بهذا القـول الجريء : أنا لم أقدم بلاغاً فيك لأحـد . وأدرك أن المـرأة المسلمة لا تصافح الرجال إلا إذا كانوا حرماً محرم لها .

أدار الموضوع في ذهنه : من الذي قدم إذن البلاغ . فاتن تنكر بشدة أنها تقدمت بالبلاغ . وها هي نازلي تنكر . أكان هناك أحد يعرف أوضاعي تماماً وأراد أن ينال مني ولمـاذا ينال مني ؟ .. ربما تكون إحداهما كاذبة .

قال : ما علينا . بلاغ تم تحقيقه وانتهى إلى " فشـوش ، أنت تغيرت كثيرا؟ ..

قالت : كيف أتغير ؟ .. إنني لا زلت أُدعى نازلي .

قال : أقصد .. تحجبت . وكنت سافرة .

قالت : رجعت إلى المولى سبحانه وتعالى .. وكنت مـن الضالين .

روت نازلي قصتها والدموع تملأ عينيها . تقول إنها فـي السنة الأولى لسفر صديق عبد المحسن إلى فرنسا . شاهدت معالم غريبة على ابنها تامر : صدة نفس . وذبـول . ولمـا ارتفعت حرارته قصدت طبيباً فطاب منها فحوصاً كثيـرة . وأثبتت الفحوصات أنه مصـاب بروماتيزم فـي القلـب . وأعلمت أباه حتى لا يتهمها بإخفاء الحقائق عنه . وجاء الأب مفيقاً هذه المرة . ولما شاهد ابنه في حالة الذبول التي تعتريه ، سقط أمام فراشه مغشياً عليه . وأسعفه الطبيب لكنه كان قد أصيب بشلل نصفي . ولم يستطع الحركة . واضطرت إلـى استضافته في قصرها حتى يشفى . ليس من السهل نقله إلى شقته ليعيش فيها وحيداً دون معين . ولم يكن قد طلقها ولـم تكن قد طلبت الطلاق من المحكمة . واستمرت حالته تتدهور . كما استمرت حالة تامر تتدهور هي الأخرى . وفي يـوم واحد أسلما الروح . مات الابن ومات الأب في نفس اليوم . سقطت مغشياً عليها بعد أن بكت كثيراً وتشنجت في نحيبها . وشاهدت ابنها سامر وحيداً يبكي هو الآخر . وخالتها والخدم يبكون كل واحد يأخذ زاوية يبكي فيها . ركعـت وسـجدت خالتها لله تعالى وطلبت منه أن يلطف بهم . ولم تجد غير أن

تقادها لعل الصلاة تبعث السلوى في قلبها المكلـوم . تـامر الزهرة الجميلة فارقتنا . كنت احب ابتسامته الزاهية فأين هي ابتسامته الآن ؟ .. وأبوه يموت أمامي وهو منفصـل عنـي دهراً . وتتجمع العائلة في اللحظات الأخيرة وينتهـي اللقـاء بهذه المأساة المروعة .

قررت التوبة إلى الله . والعودة إلى الإيمان . وهكذا يتوب الإنسان - حدث صديق نفسه - إذا ما صادفته المصـائب . غريب الموت . إنه عظة ليس بعدها عظة . لقـد وعظـت الجثث التي ألقيت في صحراء سيناء القيادة أن تستعد لمعركة جديدة . وقد اضطر الإسرائيليون إلى دفنهـا لأنهـم أرادوا استعمار سيناء فكيف يعيشون ورائحة الموتى قريبـة مـنهم تذكرهم بأعمالهم السيئة . اضطروا إلـى دفنهـا وحتـى لا يصادفوا في تحركاتهم جماجم تذكرهم بما اقترفوه أو هياكـل عظمية ترعبهم . أكثر مما بعثت فيهم حرب الاستنزاف من رعب . كان يظن أن الموت خسارة بـلا تعـويض . لكـن التعويض الحقيقي منه هو العظة .

لم يستطع صديق أن يبقى طويلاً مع نازلي . كانـت قـد بدأت تنتحب لما تذكرت المتـوفيين . وشـهقت وزفـرت ،

فخرج ليتركها مع آلامها . ولم تمد له يـدها بالمصـافحة . فالأنثى لا تصافح الذكر المحرم عليها .

وسأل نفسه : هل سوف يجازيه الرب جزاء من نوع مـا جوزيت به نازلي . أفقدها ابنها وزوجها في يـوم واحـد . ودفنا الاثنان معاً في قبر واحد . أيموت واحـد مـن أولاده حتى يتوب ؟ .. ومم يتوب ؟ .. إنه لا يزال يصلي ولا يزال يصوم . رغم أن أحداً لا يراه يصلي ولا يراه يصوم . غريب أنت يا صديق لا تجهر بأنك متدين وسط الشيوعيين . ولا تجهر بأنك مسلم وسط المسلمين . هل تعد من المنـافقين الذين ذكرهم القرآن الكريم ؟ .. أم أنك حالة خاصة لا تنتمي إلى النفاق ولا تنتمي إلى الكفر كما أنها لا تنتمي إلى الإيمان ..؟.

(٢١)

ثلاث نساء تركهن وهو مسافر في فرنسا . الأولى عرفها - فاتن زوجته - تحولت من إنسان سوى إلى امرأة مهزوزة مضطربة العواطف والأحاسيس . والثانية نازلي - عشـيقته - تحولت من شيوعية ملحدة لا تعرف الله إلى مؤمنة تصلي وتصوم . فماذا حدث للثالثة - نفيسة - التي تزوجت محامياً لتنجب له أطفالاً يرثونه بعد موته ؟ .. هل تستطيع أن تذهب إليها ؟ .. وأين هي ؟ .. هل لا تزال تحتفظ بشقتها في حي السيدة زينب أم أنها غادرتها إلى الأبد لتعيش في كنـف الزوج ؟ .. وهل استمر زواجها أم أن الرجل أنجـب منهـا وخطف أولادها وتركها ؟ .. أم لم يخطـف أولادهـا ولـم يتركها ؟ ..

ذهب ليصلي العشاء في مسجد السـيدة زينـب . ربمـا وجدها توزع نذراً مثلما كانت توزع نذر خالة نـازلي فـي الماضي أيام أن كان شريداً . ولمن توزع النـذر ؟ .. إنـك تخلط الماضي بالحاضر لتحاول أن تجعـل منـه نسـخة لا تختلف عن الأخرى .

انتهت الصلاة ولم يرها . واتجه صوب بيتها القديم ليسأل عنها . قادته قدماه غصباً عنه . كان يعترض في قرارة نفسه لكن اعتراضه ذهب أدراج الرياح . صـعد إلـى الشـقة . وطرق الباب ينتظر ألا يفتح شخص اسمه نفيسة . لكن فـي لحظة غريبة فتحت نفيسة . تأملته طويلاً ثم سألت : نعـم . قال : ألا تعرفينني يا سمارة ؟ ..

تعمقت في النظر إليه وقالت شاهقة : مـن ؟ .. الأسـتاذ صديق .

قال : نعم .. بشحمه ولحمه .

فتحت الباب عن آخره وهي تقول : تفضل . (لـو كـان ذلك قبل أن تتزوج لأخذته بالأحضان) .

دخل وهو يسأل : هل أنت وحدك في الشقة ؟ .. قالـت : نعم .. وحدي .. تصادف أن وجدتني فيها . أنا في كل شهر آت لأنظفها . وأسرح فيها في ذكريات الماضي البعيد .

سأل وهو يجلس على كنبة : وهي تجلس علـى الكنبـة المقابلة : وهل لا زلت متزوجة ؟ ..

قالت ضاحكة : شيء من هذا القبيل .. شيء وسط بـين الزواج واللازواج .

استغرب فسألها : كيف ؟ ..

قالت : لا زلت متزوجة من ذلك المحامي الذي طلقني من زوجي الأول . وعرفت أنه عديل طليقي أو زوجي السابق . متزوج من أخت زوجته . وهو أستأجر لي شقة . في عمارة كبيرة قريبة من مكتبه . في المبتديان . لتكون قريبـة مـن مكتبه . يأتي إلى عند الغداء ويذهب إلى زوجتـه الأولـى . المرأة لا تعرف أنه متزوج عليها حتى الآن رغم مرور هذه السنوات الطويلة . وأنجبت له ولداً وبنتاً كبرا ما شاء الله .. ثلاثة عشر عاماً واثنا عشر عاما ويذهبان إلى المدرسـة . يعرفان أن والدهما متزوج بامرأة أخرى . لا يريد أن يغـدر بها فيطلقها أو يعلن أنه متزوج بأخرى فيعـيش فـي بحـار السخط والغضب . واعرف أخبار أولادي الثلاثة من زوجي الأول منه . يتعطف علي بأخبارهم ويقول إن طليقي أصـبح صاحب ورشة كبيرة في مصر الجديدة صنعتها له زوجتـه الثرية . وأن ابني الكبير تخرج من الجامعة . وابني الوسـط لا زال في الطب . وسمير الصغير يهوى الهندسة مثل أبيـه وهو في نهايات السنوات. نجح هذه السنة بمجموع كبيـر . وأمهم الجديدة ترعاهم بشكل غريب وحنـان متـدفق . ولا

داعي لظهوري أمامهم . وهم يعرفون أنها زوجة أبـيهم . ولا يعرفون أين تقيم أمهم .. ولا كيف الوصول إليهـا ؟ .. وما علي إلا أن ابتعد عنهم وألتفت إلى ولدي وبنتي منه .

استمع صديق إليها ، واستغرب استسلامها للأمر الواقع . وسمعها تقول : نحن الفقراء يا سيدي .. نتطلع إلـى لقمـة هنيئة ومأوى نظيف وليس لي أن أطالب بشيء آخر . ومـا نتعرض له من خسائر نفوض الله في تعويضها وعادة ما لا تكون مقابلهـا تعويضـات . إن فقـد الأولاد خسـائر بـلا تعويضات يا سيدي .

- ألا تحاولين الاتصال بأولادك ؟ ..

- وماذا سأجني من الاتصال بهم .. ربما يطلقني الأستاذ المحامي وأعود من جديد إلى حياة التشـرد . اكتفـي بمـا رزقني الله من ولد وبنت .

- ولم احتفظت بهذه الشقة حتى الآن ؟ ..

- خشية غدر الزمن . وإيجارها الزهيد يجعلني أتمسـك بها . إن الأستاذ المحامي يعاملني بترفع . يطلبني كما يطلب السيد عبده . ويبدو أنه يشعر أن مقامي أدني بكثير من مقامه . ولو أنه يعامل ولده وبنته بحنان وحب شديدين .

- ولم لا تؤجرين شقتك هذه فستفيدين من إيجارها .
- لا .. لا أفكر في ذلك .
- إذن أنا أستأجرها منك يا سمارة .
- وهل يسمح صاحب البيت ؟ ..
- قولي له .. إنني أخوك .. هل أتركه يتشرد ؟ ..

بدا عليها أنها فرحة . ويبدو أن زوجها لا يعطيها مبـالغ إضافية لها غير مصروف البيت . بدت مرحبة بالفكرة . لكن هل ستبقى عدة شهور في مصر يا صديق ؟ .. هل سـتعود إلى فرنسا لتعمل مع هذه الصحيفة ذات اللـون الصـهيوني الأمريكي المتخفي . تمولها المخابرات الأمريكية والجماعات الصهيونية ليكتب المحررون بها ضد مصر ؟ ..

(٢٢)

أعطته المفتاح ، وطلبت منه أن يحمل حقيبته من الفنـدق إلى الشقة ، ومشت . عادت إلى البيت لتجد الطفلين يلعبان . أبوهما لا يمكن أن يكون معهما في هـذه السـاعة . وهمـا يعودان من المدرسة ، ويفتحان بمفتاح تعلقـه فـي صـدر الطفلة ، وتتركهما يستذكران لا تعرف كيف تستذكر لهمـا لذلك نبهتهما أن يعتمدا على نفسيهما .

لم يكن ثروت المكباتي يهتم بوالديه من ناحية الاسـتذكار لكن كان يغدق عليهما كثيراً من الحنان . ويعاملهما معاملة حسنة مملوءة بالحب والمودة . كان يكفيـه أنهمـا أصـبحا وريثين من صلبه لثروته المخبأة عن أعين الآخـرين حتـى زوجته الأولى . وكان يكفيه أنه وجد امرأة تتصـف بأنوثـة متدفقة يتمتع بها بدلاً من هذه العاقر القميئة التي تزوجها لعلة في نفسه . اضطر للزواج منها ليكون قريباً من حبيبة القلب أختها الجميلة . هو لا يحبها إنما يحب أختها ، تلك التي لـم تبادله الحب وتركته لتتزوج من ميكانيكي سـيارات . والآن هو يحول كل ما يتبقى من دخله إلى ثروة لصـالح الطفلـين دون أن يدري أحد حتى أمهما . ويجعل الوصي عليهما فـي

ذلك المال أمهما . وهو يدير هذه الأموال بالوكالة عن الأم . فإذا ما حول ما يتبقى في جيبه إلى شهادات اسـتثمار باسـم الولدين ، يؤكد أن الوصي عليهما هي نفيسـة . ويصـرف أرباح الشهادات باعتباره وكيلاً عن نفيسة . كان يفعل ذلـك حتى تؤول الثروة كلها إلى ولديه . ولا يمكن لزوجته الأولى أن تكتشف أين ذهبت الثروة . ولم يعلم نفيسة بما يفعل حتى لا يتحرك فيها اتجاه الغدر فتستولي على الأمـوال وتغـادر المنزل وولديها وتتركه على فيض الكريم . وكان في إمكانه بما حررته من توكيل له أن يستولي علـى الأمـوال دفعـة واحدة في حالة أي غدر دون أن تدري زوجتـه الجاهلـة . ويكتفي الآن أن يصرف الأرباح أولاً بأول . وهكذا ضمن أن الأموال تحت يده وتحت تصرفه وأن أرباحها له . لكـن نفيسة ذات أخلاق حميدة فلا يبدر منها اعتراض ولا غدر . ولكن كان يمضه أن لا يبيح لنفيسة بما يفعله لأن في حالـة موته كيف تعرف نفيسة أن لولديها تلك الأمـوال الطائلـة ، لذلك ترك لها خطاباً في دولابه يرشدها إلى هذه الأمـوال . طريقة معقدة لكنها تضمن ألا يتعرض للغـدر وألا تضـيع الأموال على الطفلين . وصمم أن يحكي الخطة كاملة لنفيسة

حتى تعرف كيف تحمي طفليها . وإذا دنا الأجل فجـأة ولـم يتيسر له أن يروي شيئاً فلسـوف تجـد الورقـة المرشـدة وشهادات الاستثمار في بيتها باسم ولـديها وهـي الوصـية عليهما فتتمكن من التصرف فيهما وتحمي ولديها من العـوز والفقر والحاجة . إن الورقة أو الخطاب المرشد سوف يدلها على كل شيء . وفي هذه الحالة سوف تغفر له تجهمه الدائم .

سأل ثروت نفسه كثيراً عن أسباب معاملة نفيسـة هـذه المعاملة المليئة بالجفاء أو الجفاف ؟ .. هل هو طبع جبـل عليه ؟ .. وأخيراً اهتدى إلى تفسير قبله وهو أن قلبه تفـتح كالزهرة لحب امرأة واحدة وصار لا يتفتح إلا لها . مـع أن هذه التي أحبها لا تبادله الحب . لكن نفيسة لا تستأهل هـذه المعاملة ، فهي حنون رقيقة مطيعة تحفـظ فرجهـا تعامـل ولديها بحنان وحب ورقة . وهل المنتظر منها غير ذلك ؟ .. لا بد أن تغير معاملتك لها . لا تعاملها كخادمة أو كعشـيقة تدفع لها مقابل تمتعك بها . لكن لم يكن يستطيع . بل لم يكن يستطيع أن يعامل زوجته الأولى – سارة – بهـذا الحنـان والحب والرقة المطلوبة . وإذا ما جاءت أختهـا لزيارتهـا

يكون اليوم يوم عيد بالنسبة له . ولكن الحبيبة لا ترق . تجد فيه رجلاً همجياً جافاً صلفاً . لكن معاملته لسارة لـم تكـن تماثل معاملته لنفيسة . درجة الخشونة أقل بكثير من معاملة نفيسة الحنون . كان يعامل سارة كسيدة . ويعامـل نفيسـة كخادمة . ربما بسبب قوة شخصية سـارة وحزمهـا الـدائم وصلافتها في بعض الأحيان ، ويحاول أن يقهر نفسه ويعامل نفيسة برقة غير أنه لا يتمكن .

تقبلت نفيسة منه هذه المعاملة لأنها بحكم كونهـا خادمـة لاقت مثل هذه المعاملة وتعودت عليها . لم تكن تشعر أن لها حقوقاً عليه . لذلك لم تعترض . ولو أن المعاملة الخشنة لـم تحدث إلا بعد أن انقضت شهور وظهر حملهـا . وحمـدت ربها لأنها لا تراه إلا ثلاث ساعات في اليوم . وترتاح منـه يوم الجمعة لأنه يبقى فيه لدى زوجتـه الأولـى خشـية أن تكتشف أمره ، ستقلب حياته جحيماً لو عرفت أنه متزوج من أخرى غريبة ؟ ! .. كيف لا يستطيع أن يواجهها ويقول لها إنه متزوج وله طفلان ؟ .. وهل إذا مات يفتضـح سـره أم عليها أن تتكتم الأمر . وهل ستجد ما تعول به الطفلـين

؟ .. إنها تعرف أن هناك معاشاً من نقابة المحامين يصـدر لورثة المحامي فهل يمكن أن يصرف لهما لكن ألا تشاركهم فيه زوجته الأولى ؟ .. هل لا تطالـب المعـاش والطفـلان يتضوران جوعاً . يا رب لا تقبض روحه الآن وانتظر حتى يكبر الطفلان ولا يعتمدان عليه . وقد يكونان حنونين علـى أمهما فلا ينكراها ولا يعذباها ويخفضان لها جناح الذل مـن الرحمة .

أتكون قد أخطأت لأنها تزوجت ذلك المحـامي . كانـت تتطلع أن تزف إلى الصحفي المدرس السابق . لكنـه كـان متباعداً عنها هكذا استشفت من تصرفاته ولمـا نبلهـا ولـم يلاطفها سقطت في يدي ذلك المحامي . تريـدين أن تنقـذي نفسك من صديق المتباعد فارتميت فـي أحضـان ثـروت المحامي الخشن . استغربت في البداية أن المحامي يريـد أن يتزوجك . نبهته أنك تعملين خادمة . غير أنه لم يهتم . طلقك من زوجك . وانتظر شهوراً ثلاثة هي شـهور العـدة ثـم تزوجك . لم تكوني تعرفين لم كان متلهفاً على الزواج منك . كان يريد أن تنجبي له لأنك امرأة ولود لأنك من قبل أنجبت ثلاثة . طليقك هو زوج أخت زوجته الأولى . وقد حمل إليها

الأولاد الثلاثة ليعيشوا في كنفها . أولادك يا نفيسة يعيشـون في بيتها وهم الدليل على أنك امرأة ولود . وطبعـاً إذا لـم تنجبي فسوف يلقي بك خارج البيت . لكنك لم تخيبي ظنه . أنجبت له الولد والبنت .

(٢٣)

تمتع يوم الجمعة بأبنائه . جلسوا حوله وهم يستمعون إليه ، كأنما يعوضون السنين التي حرموا فيها منه . وكان ضابط القوات المسلحة أكثر الأولاد استمتاعاً . وكانت صفية أكثـر البنتين أسئلة . عرف أن ابنه الضابط سـيبقى فقـط يـومي الخميس والجمعة ، وسيعود من جديد إلى جبهة القتـال فـي السويس في الجيش الثالث . انقبض قلبه : سيذهب ليمـوت هناك . استمع إليه وهو يروي مغامراته العسكرية في حرب الاستنزاف . كل مهمة يذهب إليها مع الجنود المصـريين : يفجر ويقتل ويأسر ويذبح ويعود ظافراً . حتى وعده رئيسـه أن يرقيه إلى رتبة النقيب في أقرب حركة ترقيات . فرح به ولكنه كان يتذكر الصور التي عرضها التلفزيون الفرنسـي للجنود المصريين الذين تناثروا في صحراء سـيناء كـأنهم يقضون أياماً من الشتات . موتى بلا قبور . أو خسائر بـلا تعويضات .

روى لهم ما رآه في تلفزيون فرنسا عن حـرب يونيـة ١٩٦٧ . وتفاخر إسرائيل بالسيطرة على سيناء والتهمها في ست ساعات . وكانت تظن أن الوجبة قد تستغرق منها سـتة

أيام . وكيف عرضوا الجثث والأسرى المصـريين . كـانوا عرايا إلا من الملابس الداخلية . وكانوا مستسلمين لا يعرفون القدر الذي ينتظرهم ولا مدى الإذلال الذي سيلاقونه . غيـر أن أبا بكر تدخل وقال : إننا الآن ننتقم يـا أبـي . وأنتظـر نصراً .

تدخلت عائشة قائلة : كيف يتم النصر وخط بارليف ثابت كالطود ؟ ..

قال أبوها : العبرة ليست بالخط . فقد أقيم خط ماجنو قبل الحرب العالمية الثانية وسقط . المهم هو اقتحام هذا الخط .

كانت فاتن تقف وراء الستار تستمع إلى زوجهـا الـذي هجرته رغما عنه . وشعرت أنها فقدته إلى الأبـد . كانـت تستمع ، وتفتح الستار قليلاً بفرجة ضيقة ، تتأمل وجهه الذي أحبته ، فإذا انتبه إليها أحد الجالسين ، ردت الستار بسرعة . إذن لم لا تتقدمي وتجلسي معهم ما دمت تتوقين إلى ذلـك ؟ .. فإذا ما أقدمت تراجعت . وانتقدت أولادها لأنهم لم يصفوا الوضع بينها وبين أبيهم . لكنك إذا حاولوا التصفية ترفضين ؟ ! .. نعم أرفض .. وسأظل أرفض . إنه كافر . لا يجـوز أن يكون زوجي . لكنه صلى مع الأولاد العصر والمغـرب

والعشاء . وها هو يستأذن لأنه يحس أنك لا تقبلين أن يكون زوجك . إنه يذهب يا فاتن .. ألا تتقدمين وتقولين له : أبق . إنني أريدك . أريدك بكل قوتي .

لكن لم تتمكن فاتن أن تنطق .

حاول الأولاد أن يتمسكوا به ، لكنه رفض بإصرار .

ونزل يبحث عن سيارة أجرة تقله من مدينة نصـر إلـى السيدة زينب حيث بيت نفيسة . وكان قد نقل حقيبتـه مـن الفندق إلى الشقة . يدفع عشرة جنيهات في الشهر لنفيسـة ، ولو أنه نفحها مائة جنيه . إيجار يومين في الفندق الذي نزل فيه . أخذتها نفيسة متلهفة . إذ لم يكن ثروت المكباتي يعطيها مصروفاً خاصاً بها فيما عدا ذلك المصروف اليـومي نفقـة البيت . ولعلها تقتصد لتستخرج لها مصروفاً خاصاً .

عاد يجتر فكرة طرأت على ذهنه أن يعود إلى فرنسا ثـم يضع فكرة أخرى موضع البحث أن يبقى في مصر .. مـن جديد . بعد أن اكتشف أنه يتعامل مع مجلة تمولها المخابرات الأمريكية بتحريض من الصهيونية العالمية . أصبح يعمـل

ضد الوطن دون أن يدري ، ويظهر ذلك من تلك المقـالات التي يكتبها ضد الوطن والمسئولين عنه . لكن هل لو كنـت في داخل بلادك تكتب هذه المقالات ؟ .. أكتبها وأنـا داخـل الوطن شيء ، وأكتبها وأنا خارجه شيء آخـر . مبـاح أن انتقد داخل بلادي لكن غير مباح أن أوجه النقد وأنا خارجه . وهل تستطيع أن تنتقد وأنت داخله ؟ ..

طلب نازلي هاتفياً ، وهو يشرب الشاي في مقهـى مـن مقاهي الحسين . طلب من النادل أن يناوله الهاتف ، فأشـار إليه أنه قريب من المحاسب . وسألها : هل من الممكـن أن أعود إلى المجلة للعمل بها ؟ .. قالت في امتعاض : لا أعتقد . أنت تعرف أن المجلة تم تأميمها .. والتعيين فيها عسير .

قال وهو ينهي المكالمة : شكراً ..

أصبحت الصحافة حكراً علـى الصـحافيين القـدامى أو أتباعهم من الصحافيين الجدد . وللأسف لم يعمل طويلاً فـي المجلة حتى يكون صداقات في الوسط الصحفي . وما عليـه الآن إلا أن يعود إلى باريس . ويعمـل فـي هـذه المجلـة المشبوهة حتى يجد أخرى فينتقل إليها . يكفـي أنهـا قبلتـه

ليعمل بها وإلا كان الآن مشرداً . وعليه أن يخفـف الوطـأة قليلاً في الهجوم على بلاده . وأن يكتفي بالنقـد الموضـوعي بدلاً من الهجوم .

(٢٤)

قرر أن يعود إلى باريس ، فلا يمكن أن يبقى حتى يفلس ، ويتضور جوعاً . واتصل بباريس لـيعلم سـيلفيا بقدومـه لتنتظره في المطار . استقبلت مكالمتـه بشـوق جـارف . واستغرب أن تكون لغة العيون تختلف عـن لغـة الأذان . كانت العيون توحي فيما قبل أن القلب لا يتشوق كثيراً ، أما لغة الصوت فهي تدل على وله واشتياق . لم يفكر أن يخبـر نفيسة لأنه لا يعرف أين تسكن . وقابـل أولاده مـن فـاتن وودعهم . ولم يسألوه متى يعود حتى لا يصدموا بالإجابة أنه لا يعرف . ولم يكن من بينهم أبو بكر فقد عاد إلى الجبهـة بعد آخر لقاء .

أكد الحجز وكانت الطائرة ستقلع في الساعة السادسـة . وناقش نفسه كثيراً أن يعود بعد عيد الفطر حتـى يسـتكمل صيامه هنا في وطنه ، ولا يضطر أن يدعي أنه زاهد فـي الطعام لصدة النفس التي لا يعرف أسبابها . ولكنه صـمم أن يعود ورمضان في العاشر منه ، ويصوم علناً حتى يتعـرف أولاده من سيلفيا على أنه مسـلم يصـوم ، وأن علـيهم أن يصوموا حينما يكبرون لأنهم مسلمون ولو أن كبيرهم يجـب

أن يصوم لأنه تعدى الثانية عشرة مـن العمـر . وتأجلـت الرحلة إلى أجل غير مسمى بسبب إغـلاق المطـار أمـام الطائرات . وعرف من المذياع أن الحرب اندلعت في بـر مصر .

طلب أولاده فلم يجد سوى عائشة ترد عليه ، سألها عـن أخبار أخيها فأجابت أن أهل البيت كلهم قلقون عليه . وسألته عائشة : هل أجلت سفرك يا أبي ؟ .. أجاب بـأن الرحلـة ألغيت بسبب الحرب . وشدت فاتن السماعة منهـا والقلـق يعتري صوتها ، ويبدو أنه ينهش في قلبها : ألا تعرف أحداً يا صديق في القوات المسلحة ؟ .. قال وهـو يسـتغرب أن تحدثه بهذه الحميمية : لا .. وحتى لو كنت أعرف فإن أحداً لن يدلني على مكانه . ثم لا تنسي أنني تركت الـبلاد منـذ أربع عشرة سنة .

قالت : سل أصدقاءك من الصحافيين . قال : سأحاول .

واتصل بنازلي - هي الوحيدة التي يعرفها فـي الوسـط الصحفي - وسألها : إنني أثقل عليك بأسئلتي . هل تعـرفين مسئولاً في القوات المسلحة ؟ .. أجابت : وهل هناك مسئول الآن مستعد أن يجيب عن سؤال يوجه إليه .. لم تسـأل ؟ ..

قال : أنت تعرفين أن لي أربعة أولاد من زوجتي الأولى .. سألت نازلي : تلك التي هربت منك بأولادك ؟ .. لا يـدري من الذي أخبرها . ربما أخبرها في لحظات الثرثرة معاً على الفراش ونسى . أو وهما يمارسان الحب . أو ربما أخبرتهـا نفيسة فهي ثرثارة كغيرها من النساء . قال : نعم .. ولكـن عقب عودتي تمكنت من العثور عليهم واتصلت هاتفياً بهم إذ وجدت لهم هاتفاً باسم زوجتي . واتضـح أن الولـد الكبيـر أصبح ضابطاً بالقوات المسلحة . ويعمل الآن في السويس .. على الجبهة .

قالت : الحقيقة لا أعرف أحداً خطيراً .. لكن اسمع .. هل ستسافر ؟ ..

قال : المطارات مغلقة . ولن يتيسر لي السفر حتى ينجلي الموقف .

قالت : كلمت رئيس التحرير عن طلبـك أن تعمـل فـي المجلة . ووافق على أن تعمل . كان يعمل محرراً يـوم أن كنت تكتب مقالات في المجلة . وكان مبسوطاً من مقالاتك .

سأل : متى آتي ؟ ..

قالت : تعال الآن لتقابله .

رئيس التحرير يشبهه . إنه رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير في الوقت نفسه . عرف باتجاهه الاشتراكي لكنه في نفس الوقت كان كاتباً إسلامياً كتب كثيراً مـن المسـرحيات الإسلامية . ويجمع بين الفكر الاشتراكي والفكر الإسلامي . سأله رئيس التحرير : هل يمكنك أن تعمل مراسلاً عسـكرياً للمجلة ؟ ..

قال على الفور كأنه يريد أن ينتحر : لي الشرف .

وهمس لنفسه : على الأقل قد أكون قريباً من أبـي بكـر ابني . أو اعرف أخباراً عنه . أو أصاب برصاصة وأموت شهيداً .

ثم سأله : هل أنت عضو في نقابة الصحافيين ؟ ..

قال : لا .

سأله رئيس التحرير : أين كنت تعمـل بعـد أن عملـت بالمجلة هنا ؟ ..

قال صديق : كنت اعمل في مجلة فرنسية .

قال رئيس التحرير : تلك المجلة التي تمولها المخـابرات الأمريكية . وربما تمد لها الصهيونية العالمية يد العون .

قال صديق مبهوتاً : تصور أنني لم أكن اعرف إلا مؤخراً .

قال : ما علينا .. عليك فقط أن تبادر الآن لتقديم طلباً إلى النقابة لتسجيلك صحفياً عاملاً . وتستخرج بطاقـة عضـوية لتتمكن من أن تسافر إلى الجبهة وترسل لنا أخبار الحرب .

لم يخطر بباله أنه سيكون في المعمعة بعد قليـل . لقـد اتصل رئيس التحرير بالنقابة واخبر المسـئولين بهـا بنيـة صديق في العمل بالمجلة وصدور قرار له بذلك . وأنه يطلب أن يعين صحفياً ويحتاج إلى إصدار بطاقة له بذلك . وبأسرع مما تصور تمت الموافقة على قبول عضويته . ووجد نفسـه يركب القطار إلى الضفة الشرقية حيث تدور رحى المعارك الحربية . بلغ الجبهة في اليوم الخامس من الحرب . وكانت في أشد توهجها .

هل تنتقم منه نازلي للمرة الثانية ؟ .. انتقمت منـه منـذ أربع عشرة سنة ، بأن أبلغت الشرطة عنـه بأنـه شـيوعي متنكر يكتب باسم مستعار . وأفلت من التهمـة .. إنـه الآن صحفي في وسط النار . هل أوصت رئيس التحريـر بـأن

يقذف به إلى جبهة القتال ؟ .. حتى يموت أو يتعذب . ومن الصعب أن يعود سالماً . أتراها هي التي أوصت رئيس التحرير بذلك بأن يرسلني إلى خط النار . وهل تنتقم لأني التزمت جادة الصواب ؟ .. هي الآن مستقيمة يدل تحجبها على أنها استقامت ، فهل من الاستقامة الانتقام والسعي إليه ؟ .. ولماذا قبلت ؟ .. ماذا أقول .. كيف أعيش والأموال بدأت تنضب . وليس من السهل الاتصال بالبنك الفرنسي ليرسل لي فرنكات من رصيدي عنده ؟ ..

وفكر كثيراً في ابنه أبي بكر ؟ .. وهل قضى نحبه أو استشهد ؟ .. أم لا يزال يحارب ؟ .. وهل يتمكن واحد من الضباط العظام الذين سيلتقي بهم أن يعرف وضعه تماماً ..

(٢٥)

فوجئ ثروت المكباتي بدخول محمود برعي الفهد مكتبـه ومعه ابنه الكبير عقيل . ذلك هو زوج نفيسة السابق وابنها . جاء الرجل يطلب منه أن يقبل عقيلاً للعمل لديه في مكتبـه محامياً تحت التمرين . أرتبك ثروت . وقال : كما تـرى أن المكتب صغير . (وفي سره قال : ليس مثل ورشتك التـي كبرت) . ولا يحتمل أن يكون فيه أكثر من محام واحـد . (وفي سره قال : وليس مثل ورشتك التـي زاد فيهـا عـدد العاملين إلى عشرة) قال الوالد الحنون : سوف يعمل لـديك محام تحت التمرين .. حتى يتمكن من أن يعمل محامياً بعـد ذلك ويتمكن من أن يكون عضواً فـي النقابـة . لـيس مطلوباً منك أن تدفع له شيئاً (ثم تمهل ليقول) إلا إذا جادت نفسك بشيء . (وفي سره قال ثروت : تريد أن تنهب الدنيا . ألا يكفي أنك لهفت هاجراً مني) .

تدخل عقيل قائلاً : مطلوب أن أحضر عدداً من القضـايا .. خلال سنتين . وإذا كنت لا تريـد أن احضـر قضـايا ، فيمكن أن نقول إنك أسندتها إلي .

قال ثروت مضطرباً : لا .. لا مانع عندي . تعال من يوم السبت القادم .. لتبدأ من أول الشهر .

قال أبوه : ربما يدخل عقيل الجيش لكن الحرب عطلـت دخوله . نريد ألا يتأخر عن القيد في النقابة . وإنجاز شـيء خلال الفترة من قفل باب التجنيد إلى فتحه .

قال ثروت : وهو كذلك .

وماذا يحدث لو التقى بأمه ؟ .. لقد منعت عنها الاتصـال بأولادها الثلاثة . لكن هاهو الموقف يحـدث ليـدنو منهـا أولادها وما الأهمية ؟ .. هي تعرف أن طليقهـا هـو زوج أخت زوجتي الأولى . ولكنها لا تعرف أن ابنهـا سـيعمل عندي . سوف تقفز إلى المكتب كل يوم لتراه . وقد تطلـب منه أن يحضر أخويه لتراهما .. هما الآخران . وإذا تصادف ورأتهم سارة زوجتي فقد يخبرها واحـد مـنهم أن ثـروت متزوج بأمهم .. المسألة تعقدت . لا لم تتعقد . خذ الأمـور ببساطة . متى جاءت نفيسة إلى مكتبك منذ أن تزوجتها ؟ ..

(٢٦)

أصابه القلق لتوقف الأخبار عن ابنه . كان يتكلم وهـو في بور سعيد ، والمعارك دائـرة بـين الشـطين الغربـي والشرقي ، يسأل عنه ، فتبكي فاتن - وهي تكلمه لأول مرة بسهولة ويسردون تعقيد ولكن في أسى وحـزن عميقـين - وتقول له إن الأخبار مقطوعة عنه . كان يشعر وهي تكلمـه بالدموع تتساقط من عينيها على غياب ولدها البكر . وحينما التقى بالعقيد سيف الدين تقي الدين طلب منه أن يبحث له عن أوضاع أبي بكر صديق عبد المحسن الهيهـي المـلازم أول بالجيش الثالث . فسأله : أتعرفه ؟ .. قـال : إنـه ولـدي . ووعده أن يتعرف على أخباره من قيـادة الأركـان نفسـها ويخبره بأخباره لأنه يعمل في مكتب القائـد العـام ويتنقـل للتفتيش بين الوحدات المحاربة . ولم يلتق به بعد ذلك إلا وقد حدثت الثغرة في غـرب القنـاة . حيـث زحـف الجـيش الإسرائيلي ليدخل الضفة الغربية فـي السـويس . والـتحم الجيش المصري الثالث بها هناك ، ثم صدر قـرار وقـف إطلاق النيران . ورآه وهو يتابع المفاوضات بين الجـانبين الإسرائيلي والمصري فسارع صديق إليه ، ليصافحه ويسأله

، وهو يرتدي الملابس العسكرية حتى يخفي أنه مدني . سأله : ماذا حدث لولدي ؟ .. قال سيف الدين : إنه محاصر مـع الجيش الثالث في سيناء . قال يسأله : وما العمل ؟ .. قال : أنتظر حتى تنتهي الثغرة .

سأله : ومتى تنتهي الثغرة ؟ ..

قال العقيد بقوة : إما أن تبادر إسـرائيل وتفـك حصـار الجيش الثالث وتنسحب إلى داخل سيناء . أو نتفق معها الآن على الجلاء وفك الحصار .

وبعد يومين جاء سيف الدين تقي الدين . وقال : لا تحزن .. ابنك استشهد . لم يكن محاصراً بالجيش الثالث . إنما كان يدافع عن مدينة السويس ضد الإسرائيليين الـذين اقتحمـوا الضفة الغربية . تجلد بالصبر .

أنهار صديق ، وسقط عند أول كرسي في كتيبـة القائـد العسكري للوحدة الإعلامية التي كان يستقي منهـا الأخبـار ليرسلها إلى مجلته . وبكى رغم أنه لم ير أبا بكر إلا أيامـاً معدودة ورآه في اليومين الأخيرين قبل أن يذهب إلى الجبهة . ثم غادر أولاده وقد احتضنهم جميعا مساء الجمعة . هـل

كان ذلك هو الحضن الأخير لأبي بكر . لأنه رأى أولاده بعد ذلك حينما قرر العودة إلى فرنسا فمنعته الحرب من السفر .

صدرت إليه الأوامر أن يحضر المفاوضات فـي الكيلـو ١٠١ بين الإسرائيليين والمصريين لتصفية الثغرة . حاول أن يسأل من جديد أحد العسكريين الكبار عن شهيد اسمه أبو بكر صديق عبد المحسن الهيهي . غير أن أحداً لم يدله . تأسـف الجميع لأن ليس لهم صلة بمن يعملون في الميـدان . سـأل أحدهم : هل الذين ماتوا أثناء مقاومة الثغرة سلمت جثثهم إلى ذويهم ؟ .. غير أنه لم يجد الجواب عند أحد . تـراه انضـم إلى جيش الموتى بـلا قبـور .. أو أصـبح خسـارة بـلا تعويض . مثل هؤلاء الذين يموتون ولا يجدون من يدفنهم . هؤلاء الذين نفقدهم ولا نعوضهم أبداً . إن جثثهم تتحلل في العراء ثم تضمحل ثم تتحول إلى هياكـل عظميـة تـذروها الرياح . وإذا ما لعبت الرياح بالعظـام تفرقـت فـي كـل الاتجاهات . يحتاج المرء إذا كان يريد أن يجمع الأشلاء أو العظام أن يقوم برحلة إيزيس لجمع أشلاء أوزريـس . فـي هذه الصحراء المترامية . الصحراء التـي تـاه فيهـا بنـو إسرائيل أربعين سنة .. كيف لا تتوه فيها عظام تناثرت ؟ ..

وحمل الأخبار إلى المجلة في مقالة نارية تفيض سـخطاً على القوات الإسرائيلية . وكتب : الثغرة انتهت وسيناء تحت السيطرة . وتذكر أنه لو كان لا يزال يعمل بالمجلة المشبوهة التي تمولها المخابرات الأمريكية . لكتب شيئاً مغايراً . لكتب أن الثغرة نفذت وسيناء لم يعد حتى نصفها . وكلا الأمـرين حق في عناصر منه . ولكن لا يستطيع أن يكتب ذلك الآن .

اتصل عند وصوله إلى القاهرة بزوجته الباريسـية لعلـه يعرف أخبارها وأخبار أولاده منها . كانت تبكـي وتسـأل : متى تعود ؟ .. فيقول : لا أستطيع أن أعود . ليس من السهل الخروج من مصر وقت الحرب . سألته : وكيف تعيش ؟ .. قال : أعمل في مجلة كنت أعمل بها قبل سفري إلى فرنسا . قالت : على العموم طمئني على أحوالك أولاً بأول . سألها : كيف حال الأولاد ؟ .. أجابت : مشتاقون إليك .

غريبة كأن السيناريو اختلف هذه المرة فأصـبح هنـاك زوجة تشتاق إليه .

خاف أن يطلب فاتن فيضطر إلى إعلانها باستشهاد أبـي بكر . لكن ضغط على نفسه وتصنع أن يسأل عنـه وعـن

أخباره وأخبارهم . سألت فاتن : لم نعد نراك ؟ .. قال : إنني أعمل .. وعملي في الجبهة . سألت : هل من أخبار عن أبي بكر ؟ .. قال : لا أعرف .. سأبحث الأمر مع ضابط عظيم ليدلني عن أخباره .

مضى إلى المجلة دامع العينين . لم يكن يظن يومـاً أنـه سيحمل خبر استشهاد ابنه ولا يذيعه حتى لأمـه . والتقـى برئيس التحرير ودفع له بالمقالة فقرأها ، وشكره على الهمة . والتقى وهو يخرج بنازلي شفيق . قالت له : أريد أن أراك . قال : سوف انتظر في حجرتك . لها حجـرة مخصوصـة وليست مثل باقي المحررين . لها مرتبة سامية فـي المجلـة والكل يعرف ذلك . كيف وصلت إلى ذلك النفوذ ؟ . ومن هم الذين يسندونها رغم أن الكل يعرف أنها شيوعية صـميمة . لكن الآن تحجبت . هل يسندها رجال يدافعون عـن المـرأة المسلمة .. أم ترى أن هذا الحجاب يخفي امرأة كانت تـؤمن بالشيوعية ولا زالت تؤمن بها لكن في قالـب مـن الـدين الحميد . وماذا تريد مني ؟ ..لعلها تريد أن أسدد ما علي من ديون لها ؟ .. أو ما قدمته لي من أفضـال ؟ . تريـد ثمـن أفضالها ؟ .. عودة العاشق القديم إلى مخدع العشق . يا رجل

. المرأة تحجبت . هل لا زالت تسعى إلى المتعة وقد تخطت الخمسين من العمر ؟ ..

جاءت إليه ، وقد أدار تكييف الهواء بالحجرة ، فانتعش . وزال الحر الخانق الجاثم على أنفاسه رغم أن شهر أكتـوبر يتخطى منتصفه . قالت : ما هي أخبارك ؟ . قال ضـاحكاً : عائد من الكيلو ١٠١ ومتعب ؟ .. نظرت إليه مليـاً كأنهـا تقول له : حتى لو كنت متعباً فلا بد أن تسدد الدين . ألم أجد لك وظيفة تعيش بها في زمن أنعدمت فيه الوظائف ؟ ..

تجاهل نظرات عينيها المتسـائلتين . وسـمعها تقـول : وأخبار ابنك . وكأنما ذكرته بالمصيبة التي يكتمها ، فأنفجر باكياً كأنما كان يدخر هذا البكاء ذا الدمع الغزير حتى يلقاها : مات . استشهد في مقاومة الثغرة .

لما ازداد بكاؤه ، نهضت ودنت منه ، وربتت عليه وقالت : أنا أعرف أن الضنى غال . أنا نفسي تعرضت لهذه المأساة . لم أعد أرى القمر يضحك . قمري الذي أُختطف في عـز شبابه . سألت : هل أبلغت أمه . قال : لم أستطع . قالـت : اتركها حتى يتم إبلاغها عن طريق القوات المسلحة . فهـي لن تذكر لك إلا أنك أبلغتها بأخبار سيئة . موت ابنها . لكـن

كيف عرفت ؟ .. قال : ضابط عظيم اسمه سيف الدين تقـي الدين . أخبرني ذلك الخبر .

نهضت من جانبه ، وعادت إلى مكتبها ، يبدو أنها عدلت عن مطارحته الغرام ومغازلته لما وجدت أنه غارق في بحر من الحزن ، وقالت بثقة : لا تصدق .. ابنك لم يمت .

كأن هذه المرأة الفاتنة أصبحت شـيخة وكُشـف عنهـا الحجاب . إذ لما عاد إلى مكتبـه ، رن جـرس الهـاتف ، وصوت يسأل : هل الأستاذ صديق موجود ؟ ..

أجاب : نعم .. من أنت ؟ ..

قال : ألا تعرفني . أنا ابنك أبو بكر أكلمك من البيـت . عدت في إجازة قصيرة . وأريد أن أراك .

لم يصدق . وطفق يبكي بحرقة .

(٢٧)

وطدت النفس ألا تعرف أخباراً عن أولادهـا الثلاثـة . وكان ثروت المكباتي يتعال بأنه لا يعرف عنهم شيئاً ، فقـد قاطع هاجر منذ أن تزوجت ذلك الرجل الميكـانيكي طليـق نفيسة . ولو أنه كان يعرف الكثير ، لكن لا يبـوح بـه . لا يريد أن يكون أولادها مادة للحديث بينهما . حتى لا تتذكرهم بصفة دائمة . ولم تكن لتنساهم أبداً وهم في فكرها . كيـف تناسهم وهم فلذة كبدها ؟ ..

ولم يفض إليها بخبر اشتغال عقيل – ابنها – محامياً تحت التمرين في مكتبه . ظن ثروت المكباتي أنه قد يمضي سنتين يعمل ثم يفارق المكتب ولسوف يفارقه لأنه لا يمنحـه هبـة مالية . سوى ركوبه من مصر الجديدة إلى السـيدة زينـب والعودة وهو غير مسئول لو ركـب خـلال فتـرة الظهـر والعصر وعاد إلى المكتـب . وهـو يوصـيه أن يسـتعمل المواصلات العامة ولا يجنح إلى المواصلات الخاصة . غير أن هاجر هانم – زوجة أبيه – كانت تدفع له راتباً شـهريا . ونظراً لطيبة قلبها وعطفها عليه وعلى أخوته لـم يـرفض راتبها ولم يشعر أن كرامته توجعه . امرأة حنون عوضـت

عقيلاً عن أمه . لا يحاول والده أن يشرح لهم – هم أولاده – لم أبعدهم عن أمهم وما السبب في هجره إياها . وإذا حـاول واحد منهم أن يسأل يعنفه ويشتمه . ويقول له : إنه صايع . ويمكن أن يسب ويلعن فيه حتى يرتفع صوته فيحاول الولـد أن ينسحب حتى يهدأ . غير أنه كان مع زوجته هاجر هـانم ناعماً . كثعبان يتحرك على حرير . كانت أموالها تسـتبعده فتجعله رقيقاً . فهم يعرفون أنها فتحت له الورشة . ووسعتها وتعاملهم معاملة حنونة للغاية . كسبت ودهم في ظرف أيـام واستمر الود إلى الآن . ولو أن والدهم خسرهم وصـاروا لا يطيقونه . وقلما يجتمعون معه كأنهم ليسوا في بيت واحـد . ولا يعرف عقيل لم هذا الود وذلك الحنان لهذه المرأة ولكنـه يعرف لم هذا الكره وهذا الجفاء تجاه والدهم . استنبط عقيل استنباطاً بسيطاً أن المرأة لا ولد لها وتعشـق الأولاد لـذلك سكبت حنانها عليهم . وإذا كانت السماء حرمتها من الإنجاب فقد جعلت في طريقها رجل بأولاده الثلاثة يعوضونها عمـا فقدته . أما الأب فقد كرهوه لأنه حرمهم من أمهم . وحنـان الأم لا يعوض . إنه خسارة تصادف الإنسان ولا يعوضـها حتى حنان زوجة الأب .

رغم أن عقيلاً كان يعرف أن ثروت المكباتي زوج أخت هاجر هانم . لكنه لم يكن يعرف شيئاً آخر عنه . بل كاتـب المكتب عمر عبد الرازق لم يكن يعرف شيئاً عن أحوال ذلك المحامي ذي الصوت الأجش والطول السامق والمظهر غير المعتنى به . وكان يعرف فقط أنه بخيل ووجهه عبـوس ولا يحب الناس وإن كان يعامل الزبائن بلطف وذلك بسبب مـا يدفعونه . وكان يأكل في المكتب . ويلقي إليه بالفتات . لكنه الآن - ومنذ أربع عشرة سـنة أو يزيـد - لا يأكـل فـي المكتب . ولا يترك فتاتاً . قال عقيل يعلل الوضـع : ربمـا أصبح يذهب إلى بيته في مصر الجديدة بالسيارة التي أهديت له من أحد الزبائن ، ويعود الساعة الثامنة .

قال : أبداً . إنه يترك السيارة أمام باب المكتب . كأنه لا يريد أن يهلكها . اشتراها له رجل حصل له على البراءة من تهمة مؤكدة .

سأل عقيل : هل تتبعته لتعرف أين يذهب ؟ .

قال عمر : وهل أنا مغفل . لو ضبطتني لفصـلني علـى الفور .

قال عقيل : ربما يذهب إلى مطعم ويأكل ويعود .

قال عمر في خبث : مطعم يا رجل .. من الساعة الواحدة حتى الساعة الثامنة . قبل عشر سنوات كان يطلب الأكل في المكتب ويأكل وينام على الكنبة الموجودة في حجرته . يقفل الشبابيك حتى لا يقلقه ضوء الظهيرة المؤلم . ويدير المروحة ثم يأخذ تعسيلة طويلة . والآن أين يأخذ هذه التعسيلة ؟ ..

قال عقيل : ربما أستأجر شقة قريبة من العمارة . يخلد إليها عند فترة الظهيرة والعصر .. حتى يعود في المساء ليستقبل الزبائن .

أشار إليه بإصبعه وهو يقول : هذا ما قصدته .

كان عقيل يذهب فعلاً إلى مطعم قريب من المكتب ، ويعود بعد أن يتغدى ، ويفتح المكتب لأنه يجده مقفولاً ، يكون عمر عبد الرازق قد قفله وذهب إلى بيته في داخل حواري حي السيدة زينب . وقد اصطنع له مفتاحاً وهو يقول : أنا أعرف أن ماليتك لن تساعدك على الذهاب إلى مصر الجديدة حيث تسكن والعودة . وأعطاه المفتاح ليستعمله .

كان يعرف أن لا أهمية لوجوده في المكتب ، لأن ثروت المكباتي يقوم بتحضير القضايا بنفسه ، ويقوم بالمرافعة

بنفسه ، غير أنه كان يريد أن يتعلم ، ومن حسن السجايا أن يكون حاضراً بالمكتب ، قارئاً لكل القضايا ، مبدياً رأيـه ، أحياناً يحتفظ به ، وأحياناً يجهر به ، حينمـا يجـد الأسـتاذ متشبثاً برأيه . كان يريد أن يتعلم ويتقن مهنته ، حتى يـأتي يوم يستقل فيه ، ووعدته هاجر هانم وشجعته وهي تقول : أنا أعرف أنك لن تعمل في النيابة العامـة . مـا عليـك إلا أن تجتهد ، وتنهي فترة التمرين ، وسوف أفتح لك مكتباً . ثـم تميل عليه وتقبله في خده . لم يجد في حياته امـرأة حنـون مثلها . هل لو كانت أمه معه هل كانت ستغدق عليـه ذلـك الحنان ؟ .. مؤكد فالأم لا عوض عنها . خسارة كبيـرة إذا فقدها المرأة ولا تعويض عن هذه الخسارة . ولكنها لم تكـن لتستطيع أن تستأجر له مكتباً وتموله بمصـروف شـهري . غير أنها كانت ستبذل قصارى جهدها في سبيل إسعاده . هل لو رأيتها الآن يا عقيل سوف تعرفها ؟ .. كانت سنك سـبع سنوات . يوم أن أخذكم أبوكم وهرب بكم منها وأودعكم عند تلك المرأة الحنون . اعتقد أنني سأعرفها إلا إذا كان الزمان فعل بها ما فعله فينا . كبرنا ونمت أجسادنا وأصـبح وزننـا

يختلف عن أوزاننا السابقة وأطوالنا وعروضنا تختلف عـن أطوالنا وعروضنا السابقة .

فتح الباب ودخل : لم لا استلقي على الكنبة مثل الأسـتاذ ثروت المكباتي وأنام قليلاً في هـواء المروحـة وشـبابيك المكتب مقفلة . إن عمر يقفلها قبل أن يخرج .

غير أنه ما كاد يدخل ويغفل قليلاً حتى سمع طرقاً شـديداً على الباب الخارجي ، فنهض مفزوعاً . فتح ، فوجد نفيسة أمامه تسأل : هل تعمل هنا ؟ ..

قال : نعم .

قالت : هل تعرف بيت الأستاذ ثروت المكباتي في مصر الجديدة .

قال : نعم .. أعرفه .. هو ..

لم يجد معنى لأن يحكي لها رواية طويلة أو جمل طويلـة خاصة أنه وجدها متوترة . فسألها وهو يتمعن فيهـا كأنـه شاهدها من قبل : ماذا تريدين ؟ .. قالت : إنـه متعـب .. ونفسه مكروش . قلت إن عمر قد يسعفه فأين عمر؟ ..

قال : من أنت ؟ ..

قالت نفيسة خائفة : لا أهمية .

قال : عمر ليس هنا . ولكن أستطيع أن أساعدك .

غريب صوتها كأنه سمعه من قبل . وغريب شكلها كأنـه شاهده من قبل .

خرج معها وهو يسألها : ماذا حدث بالضبط ؟ .

قالت : بعد أن أكل . شعرت أنه يترنح . وأنفاسه تقطعت . وأخذ يشهق ويزفر بشدة . كأنما يستخلص النفس بـالقوة . واستلقى على السرير . وراح في غيبوبة . ظننته نائماً لكـن لما أفاق وجدته يطلب النجدة . بعد خمس دقائق تقريباً .

سأل : ألم تطلبي طبيباً ؟ ..

قالت : لا أعرف طبيباً غير طبيب الأسـنان . قلـت إن عمر قد يساعدني .

سأل : أين البيت ؟ ..

قالت : إنه جد قريب . لكن ألن تحضر طبيباً في البداية ؟ .. !

قال : تعالي إذن ننظر إلى لافتات الأطبـاء . الموجـودة على العمارات الشاهقة . ربما نجد طبيباً ولكنه تساءل : هل نجد طبيباً في هذا الوقت ؟ ..

رن الجرس في عدة عيادات للأمراض الباطنيـة . لكـن أحداً لم يرد . حتى وجد في النهاية طبيباً يبدو أنه لا يفـارق عيادته . حمل حقيبته وذهب معهما يلبي النداء . واتجهوا إلى بيت ثروت المكباتي الذي لا يعرفه عقيل . في هـذا البيـت كان ينام نوم القيلولة . وفي هذا البيت يأكل وينام . ومن أجل هذا البيت امتنع عن أكل المطاعم . من تكون هـذه السـيدة بالنسبة له ؟ .. هل هي زوجته الثانية ؟ .. وهل تعرف مدام سارة ؟ .. أسئلة دارت في ذهنه ولم يعرف لها إجابات لكنه استنتج إجاباتها .

كان الرجل يتنفس بصعوبة . حقنه الطبيب حقنة جعلـت رئتيه تنشطان وتهدآن ، ويعود يتنفس بهدوء .

قال له الطبيب : لا تفرط في الطعام .. يبدو أنك نهم .

قال يهمس لنفسه : يبدو أن هذه هي المتعة الباقية لي يـا دكتور في هذه السن . أريد أن أنهل من الدنيا بكثرة قبـل أن أغادرها .

هكذا حدث نفسه والطبيب ينصـرف . ويعـودان إلـى الحجرة معاً .

يقول ثروت : شكراً يا بني . أنت طيب مثل أمك .

سأل عقيل باستغراب : وهل تعرف أمي ؟ ..

قال : اعرفها كما أعرفك بالضبط ؟ .

سأل عقيل بفضول : وهل تعرف أين تقيم ؟ ..

ضحك ثروت وهو يتنفس براحة ويقول : إنها أقرب إليك مني يا بني . أقرب إليك من قلبك .

نظر عقيل إلى المرأة وقال يسألها : هل تعرفينهـا ؟ .. هل تعرفين أين هي ؟ ..

سأل ثروت : كم سنة لم تر فيها أمك يا عقيل .

تنبهت المرأة إلى أقواله ولكن لم تستنبط أنها المقصودة . وعقيل يقول : ربما سبعة أو ثمانية عشر عاماً .

قال ثروت مغتصباً ابتسامة : أقدم لك أولاً السيدة الواقفـة بجانبك .. هذه السيدة زوجتي .

فغر عقيل فاه وهو يقول : زوجتك ؟ ..

قال : اسمها نفيسة . ولكن لا يجوز لك أن تناديها بخالتي نفيسة . وأمك اسمها نفيسة . وقبل أن يقول : هـي أمـك . نطقت نفيسة قائلة : ابني .

ضمته إليها . وطفقت تقبله في وجنتيه ، والفتى مستسلم ، والدموع تتساقط من عينيه .

هدأت النفوس قليلاً ، وثروت المكباتي يشـعر بالراحـة وكأن هماً انزاح عن كاهله .

وقالت نفيسة غاضبة : لم لم تقل لي إن عقيلاً يعمل عندك ؟ ..

استنبطت أنه عقيل رغم أنها لم تتعرف عليه فور نطـق اسمه ولم تدرك أنه ابنها .وأنه قد يكون تخرج وعمل عنده .

قال ثروت : حتى لا يذاع السر .. سوف تأتين إلى مكتبي لتريه . سيتعرف عليك . وسيذهب إلى زوجة أبيه ويقول لها . وتقول لأختها . وتحدث الفضيحة . لم تسطع أن تقول لـه كيف يكون إشهار زواجي فضيحة ، لكنها تسأل في استغراب : هل فضيحة أن تتزوجني ؟ ..

سكت ولم ينبس : ثم قال : أريد منك يا عقيل أن تحفـظ السر .

قال عقيل : أمرك يا أستاذ ثروت .

قال ثروت : حتى بعد وفاتي .

نظر إليه ملياً وسأل : هل معنى ذلك أنك سـوف تحـرم المرأة التي عاشت في كنفك من معاش النقابة .

قال : لا أهمية للمعاش . في هذه الخزانة شهادات استثمار بريع مليون جنيه . تدر أكثر من خمسة وعشرين ألف جنيه في السنة . لذلك فهي سوف تعيش ومعها أخويك في بحبوحة من العيش .

سأل عقيل : وما أهمية أن تعرف زوجتك الأخـرى أو لا تعرف ؟ .. ألن تشاركها زوجتك الأخرى في هذه الشهادات ؟ ! ..

كانت نفيسة تتساءل : ما السر الـذي يخفيـه ولا تنطـق السؤال . وتساءل عقيل نفس السؤال لكـن الإجابـة ظلـت غامضة .

كانا واقفين أمام السرير الذي يرقد عليه . واتجهـا إلـى مقعدين قريبين وجلسا . وراحت تسأل : وهذه الشهادات كيف لامرأة مثلي أن تتصرف فيها ؟ ..

قال مبتسماً : هذه الشهادات باسم ولديك منـي . وأنـت وصية عليهما . وأنا استخرجتهما باسمك باعتبـاري وكـيلاً عنك .

صاح عقيل في سره : رائع .. رائع .. يا أستاذ .

ونظر إلى أمه ليتأكد فعلاً أنها تماثل الصورة التي كانـت في ذهنه .. فوجد أن الصورة مشوشة . أما الواقـع فهـو واضح صريح .

(٢٨)

في يوم وليلة تحول عقيل المحامي تحت التمـرين إلـى محامي بمكتب ثروت المكباتي . نقل ثروت إلى بيت زوجته الأولى ، والتزم الصمت . ولم يستطع ثروت أن يتحرك ، أو تحرك في ثقل ، فعهد بالمكتب إلى عقيل لإدارته . ولم يعلن عقيل أمام زوجة ثروت الأولى أن ثروت له زوجة ثانيـة ، وأن هذه الزوجة لها منه ولد وبنت . وهذه الزوجة لو صاح لقال إنها أمه . لكن كيف تزوجها ثروت المكباتي ؟ .. وهل طلقت من أبي ؟ ..

لما أعلنه ثروت أن سيرتاح في البيت فترة طويلة ، لأنـه لم يحصل على إجازات لفترات تصل إلى سنين ، عهـد لـه بإدارة المكتب طوال فترة غيابه . ورغم رقة زوجـة أبيـه هاجر فإن أخت هذه الزوجة – سارة – شرسة لا رقـة فـي تصرفاتها . ربما لهذه الدرجة يخاف منها ثروت المكبـاتي ، فقد تتطاول عليه وتقتله . ذلك العملاق ذو الصوت الأجش . يخشى من هذه القصيرة القميئة ذات اللسان السليط . قالت له : أنت ابن زوج أختي يا أستاذ . لو كان صوتها حنوناً لغفر لها نبرة الصوت لكنها تتحدث بسخرية وباسـتهزاء . كأنـه

كاب تعطيه قطعة من اللحم . وهو لا يريـد منهـا شـيئاً . غريبة أن يتزوج هذه القبيحة ويترك زوجة أبـي الجميلـة . ربما رفضته وذلك لأن شكله لا يسر . لعله طلبها للزواج فلم توافق .

دخل على أخوته ، وقفل الباب بالمفتاح . وضمهم إليـه . وقال : أتريدان أن تريا أمكما ؟ ..

نظرا إليه سمير متطلعاً ولبيب مستفسراً . وهما يقـولان في نفس واحد : طبعاً . قال : إذن استعدا سوف آخذكما إليها غداً . ولكن ذلك سر . لا يجوز لأحد إذاعته . أفهمـت يـا سمير . سمير ثرثار . يذيع كل شيء .

هز سمير رأسه علامة الموافقة .

كان قد همس لأمه : أتريدين أن تري لبيباً وسميراً ؟ ..

قالت ، وهي توصله حتى الباب : غداً .. تعال بهما .

غير أنهما سمعا صوت ثروت المكباتي ينـادي عليـه . ويطلب منه أن يرافقه حتى بيته الآخر . وسأل البخيل : وهل ستتحمل المواصلات العامة ؟

قال ثروت : ولم لا أقود سيارتي ؟ ..

قال عقيل : هل يمكنك القيادة وأنت في هذه الحالة ؟ ..

قال : لا بأس هذه المرة أن تقلنا سيارة أجرة .

قالت وهو ينتظر في صالة الشقة حتى يرتدي ثروت ثيابه : أحسن أنه ذاهب حتى أراكم على راحتي .

أخذتهم في أحضانها . والدموع تسيح من عينيها . واندفع الولدان في حضن أمهم وعقيل يحاول أن يجد له مكاناً فـي حضنها . ولم تصدق اقتناعهم المباغت بأنهـا أمهـم . لـم يترددوا من الاندفاع إليها . عقيل يوم ولدته كان مـع بدايـة الثورة . أصبح الآن رجلاً محامياً قد الدنيا . ما كادت تفطمه حتى حدثت مفاوضات بين الثورة والإنجليز . وكانت تظـن أنها ترضعه على نظافة ، كما تقول النساء ، إلا أنها اكتشفت في ذلك الوقت أنها حامل . وسمعت المذياع يـردد اقتحـام بريطانيا لبور سعيد ، ومصر تحاول أن تسترد القناة منهم ، فجاءت تساندها فرنسا وتساعدها إسرائيل في سيناء . وشرف سمير الصغير ذو الوجه الضاحك ، فقد ولدتـه مـع أزيـز الطائرات ، ويبتسم كأنه يضحك على المأساة التي تتعـرض لها البلاد . أو لا يدري عنها شيئاً .

لم تصدق الأم وهي تلمس كل واحد منهم ، وقدمت لهـم الولد والبنت . هذه صفية وذاك مصطفى . ومالـت عليهمـا لتقول : هؤلاء هم أخوتكما .

وصافحهم الولدان وهما مندهشان . متى ولـدت أمهمـا هؤلاء الثلاثة ؟ .. ولم يعترضوا على كلماتهـا . وجلسـوا يتكلمون . كل واحد يشرح ما آل إليه وما هـو الآن . ولـم تسمع وهي شاردة من الفكر لأنها تكاد تطير من السعادة من رؤية أولادها . خمسة أولاد . خمسة وخميسة في عين من لا يصلي على النبي ..

الرياض في ٥ / ٥ / ٢٠٠٣

المؤلفات :
الكتب السياسية والاقتصادية :

الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية ، مكتبة عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٣ .
العمالة وفرص العمل ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ١٩٩٨ .
القرارات الاقتصادية بين الفرد والمجتمع ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ٢٠٠٠ .
الانتخابات ، موسوعة الشباب السياسية ، ٢٠٠١ .
الدول بين التخلف والتقدم ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ٢٠٠٢

الروايات والمجموعات القصصية

اللقمة في يد النساء ١٩٧٧
بذور ١٩٨١
وقائع غير مرئية تحت الشمس ١٩٨٧
لآلئ الزمن الخالي ١٩٧٨
خذ الحذر ١٩٨٨
غالباً ما يتفتح الزهر ١٩٨٨
السفر إلى زمن ميت ١٩٨٩
بعد فوران الحمم ١٩٨٩
الدكاكين الصغيرة ١٩٩٠

لو أعلنت الحقيقة ١٩٩١
نفحات من العطر المعتق ١٩٩١
العودة إلى الحياة ١٩٩١
مازلت أتألم ١٩٩٢
انقلاب في الثلاثين ١٩٩٣
الجري وراء الأهواء ١٩٩٣
الميراث ١٩٩٤
سلام الذئاب والحملان ١٩٩٤
المصيدة الكبرى ١٩٩٥
شقة الهوى والهوان ١٩٩٦ (صدرت بتمويل من اتحاد كتاب مصر)
الحب بالإكراه ١٩٩٩صدرت في سوريا
ليالي الزعبلاوي ١٩٩٩ صدرت في سوريا
ملكة الأرخبيل ١٩٩٩صدرت في سوريا
دوامة بلا حدود١٩٩٩ في سوريا و٢٠٠٠ في مصر
الهجرة من المستنقع ١٩٩٩
مهاجر من إسرائيل ٢٠٠٠
الهارب من النار ٢٠٠٢
الخداع يعود بثوب جديد ٢٠٠٢
فندق الشقاء الأزرق٢٠٠٢
الميت الحي ٢٠٠٢
أين الكموني ٢٠٠٢
المتعة عند الغروب ٢٠٠٢

الأخوان نار ونور ٢٠٠٢
حرب الصقور ٢٠٠٤
لغة بلا كلمات ٢٠٠٤
بين المهمشين ٢٠٠٤
الخطيئة والندم ٢٠٠٤

دار النشر الإلكتروني

مؤلفات سياسية واقتصادية
الطريق إلى الإصلاح السياسي ٢٠٠٥
توصيات اقتصادية ٢٠٠٥
السلطات العامة ٢٠٠٥
السيادة بين الاقتصاد والسياسية ٢٠٠٥
قضايا دستورية ٢٠٠٥

روايات ومجموعات قصصية
عبور الخط الأحمر ٢٠٠٥
ذكريات فضيلة ودليلة ٢٠٠٥
اعترافات الورد والشوك ٢٠٠٥
الأهوج٢٠٠٥
أيامي الأخيرة ٢٠٠٥
كشف الماضي ٢٠٠٥
أخبار الشخصيات البارزة ٢٠٠٥
الاعتقال في الدار ٢٠٠٥
خسائر ومكاسب الجزء الأول خسائر بلا تعويضات ٢٠٠٥